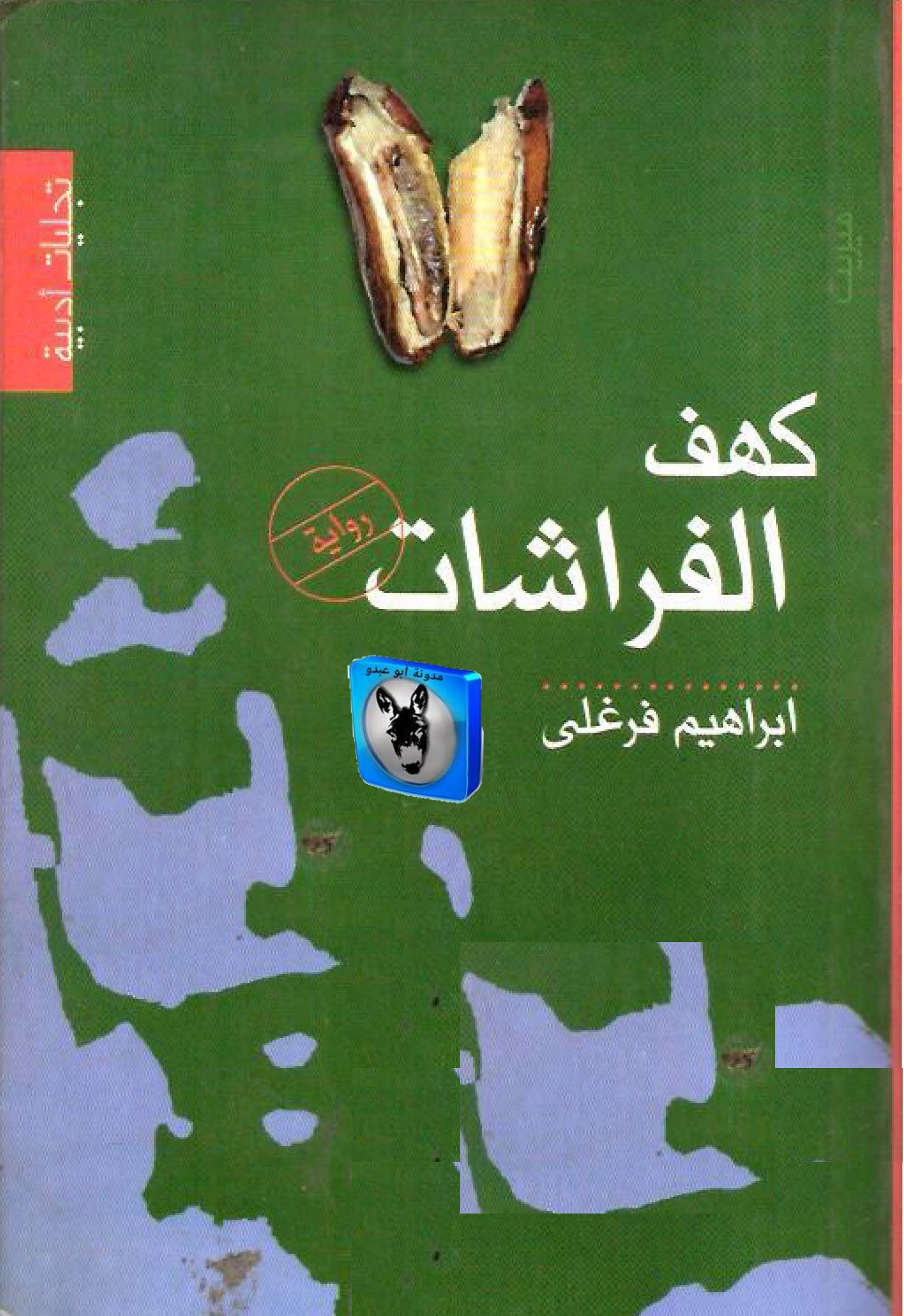

كهف
الفراشات
رواية
ابراهيم فرغلى
تجليات أدبية
مدونة ابو عبدو

كهف الفراشات

كهف الفراشات

إبراهيم فرغلى

الطبعة الأولى، ٢٠٠٣

٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة

تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)

merit56 @ hotmail. com

الغلاف : **أحمد اللباد**

المدير العام: **محمد هاشم**

رقم الإيداع: ٢٠٠٣/٣٠٤٨

الترقيم الدولى: **977-351-093-x**

إبراهيم فرغلى

كهف الفراشات

رواية

دار ميريت



إلـــى رفقـــة الشهور التسعة قريبا من قلب لا نـهائـى المحبـة ..

إلـى أمـى

مركب تاخدنى.. لبلاد بعاد
ولقا يصادفنى .. من غير ميعاد
زمن ياخدنى لمكان ..
عطشان أنا عطشان* ..

عبد الرحيم منصور

* الأغنية بصوت محمد منير

مدخل

فـــراشات *

* فراشات : قصة قصيرة نشرت سابقا ضمن مجموعة قصصية باسم "باتجاه المآقي".
وقد أعيد نشرها ببعض التصرف إذ أن هذه الرواية لا تستقيم أحداثها دون الإشارة إليها.

كنت على يقين كامل بأن ما تتداوله الألسنة هنا فى هذه المـــنطقة الصحراوية النائية والمحاطة بالجبال ليست إلا مجرد خزعـــبلات مـــن خلـــق خـــيال الأجيال القديمة للبدو توارثها اللاحقون كل يلقنها لمن يليه بعد تحريف يلائم ظروف عصره أو حكيه.

لذلـــك فســـرعان مـــا نفضت تلك الحكايات من رأسى مركـــزا اهتمامى على ما حضرت من أجله وهو دراسة سرعة الـــرياح واتجاهاتها فى المنطقة صيفا وشتاء، وتأثير ذلك على طرز البناء القديمة ثم مدى استفادة المعماريين المعاصرين من هذه التصميمات فى الوقت الراهن.

سجلت ملاحظاتى خلال جولتى بالمناطق الداخلية التى مـــا زالت أغلب بيوتها تحتفظ بالطابع القديم، وكلها تتكون من طابقيـــن لا يحوى الأول أية فتحات تهوية أو منافذ، أما الطابق العلوى فيحوى مجموعة من النوافذ ، اكتشفت أنها تواجه الجهة الـــتى منها تأتى الرياح الجنوبية الغربية القادمة من جهة البحر البعـــيد خاصـــة فـــى فصل الصيف حيث يكون الطقس شديد الحرارة مع نسبة رطوبة عالية، وهو ما لاحظته أيضاً فى أثناء زيـــارتى لذلـــك الحصن الضخم الواقع على أطراف المنطقة ، فالـــبرغم مـــن إضافة الأسوار والمخابئ السرية والأبراج فإن عامل المناخ كان حاسما فى التقيد بالتصميم ذاته.

كـــان "الصــــلت" هو الشخص المكلف بمراقبتى . وهو علـــى معرفـــته التامة بالمكان – آثاره وأشخاصه – له مواهب خاصة ؛ إذ أنه يتقن اللغة الإنجليزية واللهجات العربية المختلفة ويـــتكلمها كأهلها، كما أنه على دراية تامة بكل مداخل الكهوف المنتشـــرة فـــى أعمـــاق سلاســـل الجبال التى تحيط بالمكان ناهـــيك عـــن دروبها الداخلية ومخابئها السرية ومخارجها إن وجدت.

يـــأتى إلىّ فى الصباح ليسألنى عن الأماكن والمناطق الـــتى أرغب فى زيارتها ليحدد على ضوء ذلك برنامج اليوم، وترتيب زيارة المنطقة.

كان الكهف مستقرا فى بطن أضخم جبال المنطقة، على ارتفـــاع نحـــو عشرة أمتار عن سطح الأرض. وكان علينا أن نصعد بحذر شديد؛ بسبب الانحدار الشديد للجبل بالإضافة إلى وعورته الشديدة.

رحـــت أصـــيخ السمع مندهشا لما تصورت أنه ألحان موسيقية عشوائية خافتة ارتفعت تدريجياً بمدى اقترابنا من الكوة الضيقة التى تفتح الطريق للكهف المتسع، ووصلت ذروتها وأنا أقـــف فـــى عمـــق الكهـــف أجيل بصرى فى جدرانه، وأرقب النتوءات والزوائد الحجرية فى سقفه، محاولا اكتشاف أية منافذ سرية يحتمل أن تنطلق منها هذه الألحان ، أو تكشف عن وجود مكـــان لجوقـــة العازفيـــن المهـــرة الذين ملأوا المكان بسحر موســـيقاهم، الـــتى تتـــناغم مع أصوات بشرية تصدح بألحان أسطورية مدهشة تبدو وكأنها تصدر من أعماق هذه الموسيقى

ذاتهـــا. اختلس النظر إلى "الصلت" فأجده يبتسم ابتسامة ماكرة وهـــو يجيل بصره فى أنحاء المكان. فور خروجنا من الكهف عـــاد ســـرب الفراشــــات الكثـــيف إلى حيث كنا مرة أخرى : فراشات جميلة لها ألوان صفراء وحمراء وبنية داكنة تطير فى جماعات وبخفة لتبدو كأنها ترقص على الألحان الأسطورية فى رشاقة.

خرجـــت مـــن الكهـــف صــــامتا تتجاذبنى الهواجس، وتناوشنى أسئلة كثيرة . لم أنطق بكلمة خلال الطريق الطويل، ولم أعلق على شىء مما قاله "الصلت". كنت مسحورا ومسكونا بالألحان وبقدرتها المدهشة على استعادة شفافية الروح.

انهكـــنى الأرق إذ تناوبت الألحان والأفكار وحكايات "الصلت" على رأسى فلم أستطع النوم. عاندتنى مخيلتى وراحت تتسع بشكل مرعب بحيث إننى فقدت السيطرة على كل ما راح يطـــوف بها من مشاهد وما يحلق من خيالات وبشر. وبين آن وآخـــر يختفى من رأسى كل شىء عدا مشهد الفتى وفتاته فى أعماق الكهف، وهما يتحولان إلى فراشتين جميلتين، سرعان ما تحول رفيفهما إلى ألحان أسطورية صاخبة لم تنقطع حتى هذه اللحظة.

رأيـــت القافلــــة تســـير عائدة تحوم حولها صقورها ، يتقدمها نعش لشيخ القبيلة؛ إذ أنه لم يحتمل المفاجأة التى أفقدته صوابه، وهو يرى بعينيه ابنته العاصية وعشيقها يتحولان إلى فراشـــتين – كما حكى لى الصلت – وكانت الألحان تتردد فى أعماقى بصخب ، تنثر النشوة وتتدفق بلا انقطاع.

* * *

اعـــتقد أننى استيقظت فى اللحظة التى بدا فيها جسدى معلقـــا فـــى الهـــواء تماما، وعندما ارتطمت بالأرض نهضت مفزوعا. حدقت فى موضعى على الفراش حيث كنت نائما منذ لحظـــة. اعتدلـــت جالسا أحاول استرجاع تفاصيل الحلم الذى رأيـــت فـــيه ما جعلنى ألقى بنفسى من فوق الفراش. بسم الله الرحمن الرحيم.. تضخمت صورة السيدة العجوز فى مخيلتى ، وبـــدت ملامحهـــا شديدة الوضوح، خاصة عيناها الصغيرتان الســـوداوان اللـــتان تعكسان طيبتها وعنادها فى آن. غير أنها عندما حدقت فى عينى اكتشفت قوتهما الهائلة إذ هيئ لى أنهما قادرتـــان على قراءة كل ما يجول بعقلى من أفكار وما يطوف فى روحى من مشاعر.

فاجأتـــنى العجوز بعينيها اللتين وجدتهما فى مواجهتى تـــنفذان إلـــى أعماقى وقد سلبتا قدرتى حتى عن تحويل عينى هروبا من ذلك التأثير النفاذ، وكانت الكلمة تتضخم فى أعماقى .. الشجرة...! عندها تحولت العجوز تحولا مفاجئا ومداهما كما الصرخة التى راعنى خروجها من أعماقى.......... "الشجرة"!! وكانت هى ذات الشجرة المتاخمة لكهف العشاق.

* * *

كان الهواء الرطب الذي يلفح وجهى يزيد من حماسى وأنـــا أسير خلال الوادى الضيق الذى يقع الكهف على أطرافه. ولكـــى أكون صادقا فإننى لم أكن سائرا إذ شعرت بأننى خفيف تمامـــاً وكأننى محمول من قبل قوة غريبة وغير معروفة كان عليها أن تسرى بى إلى حيث كانت تلك الشجرة. أندفع غير آبه

بالليل ولا بالظلام ولا حتى ذلك العواء المخيف الذى كان يتردد فـــى أرجاء الوادى وكثيرا ما أرعبنى وأذهب عن عيونى النوم خـــلال اللـــيالى السابقة . عندما وصلت أخيراً كانت الرياح قد اشتدت تماماً. تلفت حولى فى حذر عندما التقطت أذنى صوت بـــدا كأنه ·آهات خافتة مختلطة بأنات واهنة كانت تخرج لاهثة غير أنى لم أستطع تحديد مصدرها.

سمعت اسمى فأجفلت وكان الصوت الواهن يشتد قليلا معلـــنا عن مكان صاحبه . رأيت الجسد مسربلا بالأسود ملقى على الأرض بلا حركة. عندما اقتربت تبينت من الصوت الذى صارت نبراته أكثر وضوحاً أنه يخص أنثى... سألتنى بوهن:

أخيراً حضرت؟

أخرجـــت مـــن حلقى همهمات غامضة إذ أننى لم أكن أفهـــم شـــيئا. تأوهـــت بشدة فيما كنت أحاول مساعدتها على الـــنهوض وهـــى تضغط بأسنانها العلوية على شفتها السفلى . تأملـــتُ عينـــيها فراعـــنى جمالهما. لم تكن عيناها السوداوان واســـعتين غـــير أنهما كانتا تلتمعان ببريق أخاذ ، يزداد كلما حدقـــتُ فيهما..... وارتجفت . عاودنى هذيانى . وقد أدركت أنـــنى أعرفها منذ عمر طويل.. ربما يمتد بطول حياتى كلها.. عاودنى هذيانى.

اصطكت الأسنان / عبق الجسد الأليف / جراح الجسد المثخـــنة لم تصل إلى الروح / صهيل خيول قيدتْ أطرافها ما بـــرح يداهمـــنى / ثارت الخيل وراحت تطرق الأرض بقوة / آآه ه/ حلقـــوا شعر رأسكِ يا جميلة / هل طال ذلك من سحرك

قــيد شــعرة / عاودتها الحمى فطافت كفى على الجسد النحيل الــذى لم تزده الجراح إلا نعومة / عيناك يا مليكتى تضيئان / ارفقــى بقلــبى الطفل فأنا لا احتمل آهاتك / قلبى يرقص على إيقــاع خلخــالك / خمرية أنت لا سمراء إذن / طاقت الشفتان علــى الحلمتين فهمستا انتظرنا عشرين عاما/ وزادت الشفتان ثمانية / إذا حل علينا عيد سأحنيك بنفسى / لأنامل قدميك بهجة صــباح توقظــنى فيه عيناك / أغرقتنى بخمر عينيك فلا تبالى بهذيانى / أتدفق إليك أو أتوق / احمنى من قهر القبيلة يا جميل/ نداءاتك يزركشها رنين الخلخال / امسحى دموعك وابك كطفلة/ عيناك تتسعان فى مرآة عينى فتحتويانى / ارتجفت فى احتكاك العانتيــن / لا تبعدى ساقيك لأتحسس الخلخال / رفيف أجنحة الصــقور نذير الشؤم / لا تتركنى لهم يا جميل / دثرينى أنت بعريك لنطير / مع الفراشات كدنا نطير.

* * *

لــم ينجح "الصلت" لأسبوعين متتاليين فى إخراجى من حالة الصمت التى تملكتنى، كما أننى رفضت كل ما ناولنى إياه من أدوية وأعشاب جلبها لى لتذهب بالحمى التى سيطرت على جسدى. غير أننى بعدما رحت أحلم بالفراشات كثيرا ، خرجت عــن صــمتى، وأقسمت له أننى أصدق كل ما أخبرنى به وأنا أحــدق بالفراشات التى كانت تحلق حولنا فى حذر. فى صباح اليوم التالى فوجئت بوجود خلخال فضى مبرقش بنقوش جميلة وقديمة موضوع على المنضدة المجاورة لفراشى، هالنى أنه ما زال دافئا. وكانت الفراشات قد حضرت تدعونى للخروج!

الخروج

- ١ -

لم أحمل معى إلا قنديلا ودفتر مذكراتى القديم. أحكمت مـــن غلق المعطف الذى تدثرت به عندما وضعت قدمى خارج الــباب. حاولت تجاهل خوفى وأنا أتحسس طريقى بين النخل الواقع أسفل الجبل. تجاهلت الأصوات الغريبة المصاحبة لخرير المياه فى المجرى الموازى للطريق. كتمت صراخى عدة مرات وأنا أتفادى ما فاجأنى من كائنات لم أعرف ما إذا كانت طيورا ليلية أم خفافيش، أو ربما أشباحا لها عمر هذا الكهف.

وجدت نفسى أخيراً أقف فى عمق الكهف لاهثا وممتلئا بالموســيقى الســحرية الــتى تصطخب فى أرجاء المكان. فى اللحظة التالية صرخت عندما شاهدت شبحا ضخما يقترب منى بخطى وئيدة قبل أن يسألنى بصوت غليظ:

- من أنت؟
- أهذا أنت يا صلت؟
- لست "الصلت". أجب عن سؤالى.
- أجفلت ولم أجد ما أقوله.

جاءنى صوته أكثر غلظة:

- ألم تسمع سؤالى؟

- أنــا .. حضـــرت .. لأجـــل.. فتاة.. كنت أحلم بها كثيرا.. رأيتها هنا منذ أسبوع وقد حضرت لأبحث عنها.

حل الصمت لفترة قبل أن يأتينى صوته مرة أخرى وإن حملت نبراته شبهة اهتمام ما:

- صفها لى.
- لا وصف لها.
- هل هى من الإنس أم من الجان؟
- لا.. لا.. طبعا إنسية.
- فكيف تكون بلا وصف؟

حاولت استرجاع تفاصيل الرؤيا وذكرتها له تماماً كما رأيتها. فتأملنى قليلا وهو يحدق بعينى قبل أن يقول:

- ما تبحث عنه يبدو مستحيلا إذ أننى لا أعرف وصفا كهـذا، غـير أنـــى ألمح فى عينيك ما لا يظهر إلا فى عيون العشـــاق. فاسمع منى على أن تعدنى بأن تحكى لى بدورك كل شىء فربما أستطيع مساعدتك.

أنت هنا فى كهف الفراشات أو بالأحرى كهف العشاق. لم يصل إلى هنا إلا عاشق. غير أن المتاهة فى هذا الكهف بلا قرار. ودروبها وعرة. وتحتاج إلى صبر وتأن شديدين، وقبلها إيمـــان تـــام وإخـــلاص مطلق. فلم يصل قبلك أحد هنا وخرج ســـالما، سوى عاشقين تحولا بسحر الحب إلى فراشتين؛ فنجيا مـــن القهر وتحقق حبهما المستحيل. وما تسمعه الآن ليس إلا غناءهما لحبهما الذى لا ينقطع بمرور السنين، ودعوتهما الأبدية للعشاق أن يحققوا الحب المستحيل . إعلم أيضاً أن الفساد الذى

يعـــم فـــى الخـــارج مـــن القوة بحيث إنه لحق بدروب الكهف ومسالكه، وأصبح على الداخل إليه أن يجتاز مصاعب متعاقبة وأن يســـير فـــى دروب شـــاقة حـــتى يصـــل إلى مراده. أما المغامـــرون مـــن أمثالك فقد تعاقبوا على هذا الكهف منذ وقت طويـــل، بعضـــهم فـــروًا هاربين، وآخرون اختفوا فى دروب المتاهة ولم يبق لأى منهم أثر.

عـــندما صمت الرجل أحسست بالرهبة تتلبسنى خاصة أنه ثـــبّت عينيه فى عينى بقوة:

- هل تعرف أن "الصلت" قد رأى رؤياك؟

- "الصلت"؟!

- نعـــم.. ولعلـــك لا تعرف أنه أيضاً على علم بأشياء كثـــيرة عـــنك. ولا تســـألنى كيف عرف. وهو يعرف من آلام العشق ما يفوق ما خبره منها سواه. وقد يحكى لك قصته يوما. كـــان يصـــرخ طوال الليل بما عرفه عن رؤياك. ولهذا فاننى سأحكى لك قصتى كما وعدتك لمعرفتى باخلاصك.

عـــندما عاود الحديث بدا صوته وكأنه يصدر من عدة رجال فى نفس اللحظة يقف كل منهم فى ركن خفى من أركان الكهف:

- أنا يا ولدى أحد الفراشتين اللتين سمى باسمهما هذا الكهـــف.. كانـــت معشوقتى أجمل بنات قبيلتها وهو ما جعلها بطبيعة الحال مطمع رجال القرية كلها.

فاجأنى ما قاله الرجل. دققت النظر فى ملامحه. كانت قســـمات وجهه متناسقة غير أن وجهه بدا بلا غضون . عيناه

زرقاوان واسعتان صافيتان كأنهما عينا شاب فى العشرين، وبدا جسده فتيا رغم الانطباع الذى يعطيه بأنه عجوز معمر..

أفقت من شرودى وهو يقول:

– يومـــيا مـــع وصيفاتها إلى البركة المجاورة للقصر تخلـــع ثـــيابها كلها وتلقى بها إليهن قبل أن تسلم جسدها لمياه الـــبركة تلهو وتلعب وتغنى .. وكان صوتها جميلا إلى الدرجة التى تصمت معها كروانات وبلابل لا همّ لها إلا الصداح..

بـــدأت أصيخ السمع للألحان التى لم تتوقف من حولنا، إذ تهيأ لى أنها تتناغم مع أصوات بشرية تصدح بألحان مدهشة، تبدو وكأنها تصدر من أعماق هذه الموسيقى ذاتها. حاولت أن أركـــز لأتعـــرف على صوت الأميرة الساحر.. دون جدوى.. وجاءنى صوته مرة أخرى ليفيقنى من شرودى:

– بشـــتى الطـــرق ليأمن بطشه ويحقق مآربه. وما إن وقع بصر ابن ذلك الطاغية على الأميرة حتى شغف بها، ولما رأت أنـــه يشـــاركها ما تحبه بادلته إعجاباً بإعجاب، غير أنها بمـــرور الوقت اكتشفت أن شيئاً من ذلك لا يعنيه. وأنه لم يكن يرغب إلا أن يضم جثة جديدة إلى جثث الحريم فى قصره.

حاولت أن أكوّن صـــورة عن هذه الأميرة. وقد داعبت خـــيالى بقـــوام فارع وبشرة بيضاء وشعر فاحم مسترسل حتى ظهرها. ومكتنزة قليلا رغم طولها. ثم إنها أصبحت أطول قليلا وصـــارت بشرتها نحاسية وقدماها نحيلتان ودقيقتان.. وعيناها عسليتان وبهما سحر خاص.

ارتفعت نبرات صوته كأنه أدرك غيابى عما يقوله فانتبهت:

- من براثن ذلك الوغد. ومنذ ذلك اليوم بدأت قصتى معها والتى كادت أن تهلكنا لولا تلك المعجزة القدرية التى حولتنا بقوة الحب وإرادته، إلى فراشتين . هذه هى قصتى. قصة هذا الكهف. وقد أو جزتها لأننى ألمح فى عينيك لهفة العشاق. تريد أن تبدأ الرحلة.. أليس كذلك؟ ليكن. ولكن ليس قبل أن تنفذ وعدك بأن تحكى لى كل شىء.

مددت إليه بدفتر مذكراتى وأوراقى.. تركتها بين يديه وأنا أبدأ سيرى بعيدا.. كمجذوب، وكان صوته يلاحقنى "اصبر يا ولدى.. الطريق وعرة ولا يعرف خفاياها إلا من امتلك مفاتيحها.. اصبر.. اصبر.. اص...............".

- ٢ -

تـنهدت بعمـق فـور انطلاق الأتوبيس الذى بدأ فى الـتحرك أخـيرا. التفت إلى الساعة فى يدى. كانت تشير إلى التاسـعة. ألقيت نظرة أخيرة على الفتاة الشقراء عبر النافذة. لم أستطع رؤيتها بوضوح. انعكست صورتى على النافذة فداهمنى توترى مرة أخرى.

ارتطمت ذراع الجالس بجوارى بكتفى . التقت عينانا. همهـم معـتذرا. ابتسـمت وهمهمت بدورى. أدركت من زيه العسكرى أنه مجند يقضى فترة تدريبه العسكرى.

لم أستطع أن أتبين شيئاً عبر النافذة. أدركت من الظلام الدامس أن الأتوبيس قد خرج من المدينة. كانت الشاشة تعرض فيلما سخيفا فعاودت التحديق عبر النافذة.

هدهدنـى النعاس.. ولم أكن قد نمت جيدا بالأمس كما هى حالى فى الشهور الثلاثة الأخيرة. حدقت فى اللاشىء عبر النافذة مستسلما للنعاس حتى غفوت.

عندما استيقظت نظرت عبر النافذة. رأيت مجموعة من الحـافلات وجمهرة من الأجانب والمصريين أمام مبنى متهالك بـدا لـى كمقهـى درجة ثالثة تم تطويره إلى كافيتيريا. كان

الأتوبـــيس خالياً إلا من مجموعة من الجنود فى مقدمته. سرت فـــى الممر بين صفى المقاعد حتى حاذيتهم، وعرفت منهم أننا فى استراحة قريبة من "السويس".

نظـــرت إلى الساعة وأنا أهبط من الحافلة. أشارت إلى الثانـــية صباحا. توجهت إلى الكافيتيريا واندسست وسط الزحام حـــتى استطعت الحصول على كوب شاى. بحثت عن الجندى الـــذى كان يجاورنى . تجولت ببصرى بحثاً عن طاولة خالية حتى وجدت واحدة يجلس إليها شاب أسمر نحيف. استأذنته فى الجلـــوس فأشار بيده مرحبا قبل أن يقرب الساندويتش فى يده باتجاهى. شكرته فبدأ يأكل بنهم. أشعلت سيجارة وارتشفت من كـــوب الشـــاى رشفة. بدا مغليا للمرة الألف. لفتت نظرى فتاة شقراء ترتدى بنطلونا أسود قطنيا، وقميصا أصفر واسعا تقف أمـــام دورة المـــياه وهى تضع إحدى يديها على بطنها. كانت تدخل إلى هناك ثم ما تلبث أن تعود وعلى وجهها ملامح استياء وألـــم. ثم اندفعت باتجاه الحمام وتأخرت فأدركت أنها أخيرا قد قضت حاجتها.

ارتشـــفت رشفة أخرى من كوب الشاى. رفعت عينى فتعلقـــت بعينى فتاة نحيفة بشرتها قمحية أخاذة، أعطاها شعرها المجعـــد هالة من الجاذبية، سددت نظرها إلىّ بإصرار فنحيت نظرى عنها مرتبكا، وأنا أجذب أنفاسا متلاحقة من السيجارة فى يدى.

اختلســـت نظـــرة أخـــرى فوجدتها تحول عينيها إلى صديقتها الجالسة بجوارها وتبادلها الضحكات.

خرجـت الفـتاة الشقراء من دورة المياه وعلى وجهها ملامح تقزز. أحسست بثقل أسفل بطنى فتوجهت صوب الحمام. تلقفتنى رائحة نفاذة وشعرت بالاختناق. أدركت سر تقزز الفتاة وترددها طويلا قبل دخول الحمام.

خرجـت لاهـثا من طول كتمانى لأنفاسى . روادتنى رغـبة فى التقيؤ فأسرعت إلى الخارج لاستنشاق الهواء بعمق. وجـدت الجمـيع يـتجهون إلى الأتوبيسات . بحثت عن الفتاة القمحـية إلا أنـنى لم أجد لها أثرا. أسرعت باتجاه "الأتوبيس" حيث كان السائق يطلق نفيره فى عصبية.

سـمعت ضـحكتها فى أعماقى. كنت قد افتعلت معها مشكلة فى الأيام الأخيرة قبل قرارى بالهروب إلى "شرم الشيخ" منها ومن صورة نورا التى تلاحق خيالى بإصرار عنيد. أردت الهـروب من نظرات الشفقة ومن رئيسى بالعمل، ومن نفسى. ربما كان ذلك ممكنا ولكن كيف أهرب من هذه الهواجس التى تسـكننى ومـن الأرق المرعـب الـذى يمنع عنى النوم ومن الكوابيس التى تداهمنى إذا عرف النوم طريق إلى عيونى؟!

أريـد أن أهـرب منها بدون مواجهة . فلم أعد أشعر بأنـنى أمـتلك القـدرة على مواجهة أى شىء. أعرف أن هذا سيسبب لها آلاما. لكنها أصرت، وكان على أن أصارحها. قلت لها إن ما بيننا محكوم عليه بالفشل.

عـندما ألحـت فـى لقائى حاولت التنصل. أردت أن أوضـح لهـا الأمر بهدوء، أن أقول لها إن علاقتنا تسببت فى زيـادة إحساسى بالذنب. ولم تنجح فى محو صورة "نورا" من خيالى. بالعكس كنت أقارنها بها طوال الوقت. ولم تكن المقارنة

فـــى صـــالحها. فقد كان تفاهمنا أنا "ونورا" مدهشا مهما بدونا مختلفيـــن، ومهما ذهبت عصبيتنا إلى مناطق الانفجار. لم أكن معتادا على مسألة استمناء المشاعر هذه ، افتعال أننى أحبها. لم أكـــن مستعدا للكذب عليها. غير أننى كنت مدفوعا إليها كملاذ أخير من الجنون الذى شعرت أننى موشك عليه.

بـــدت منفعلة ومضطربة. أدركت فيما يبدو أننى على وشـــك الهـــروب. توتر صوتها، وبكت كثيرا. أثارت أعصابى بـــتوترها وبتصـــديرها الإحســـاس بأنـــنى أتسبب فى إيلامها. صـــرختُ قائلا إننى لن أستطيع مواصلة هذا الاستنزاف، وإنها لم تستطع أن تنسينى آلامى، وأننى غير قادر على مبادلة الحب لأى شخص وأن علاقتى بها حطمت ما تبقى سليما فى روحى.

* * *

أشارت عقارب الساعة فى يدى إلى السابعة وأنا أقترب من الباب الحديدى الضخم المتاخم للسور المحيط بالمبنى الأنيق المكـــون من طابقين، والذى يطل على فناء واسع به مجموعة مـــن ملاعـــب كرة السلة والقدم، تجاورها مساحة أخرى خالية حددت بإطار أخضر من الحشائش العشوائية والزهور وبعض شجيرات صغيرة.

ســـرت على مشاية أسمنتية تفصل بين المبنى والفناء حـــتى لمحـــت إشـــارة على شكل سهم أسود خشبى إلى اليمين فانحرفـــت فى ممر انتثرت على جانبه الأيمن بعض الشجيرات فـــيما أحاطنى على اليسار جانب من المبنى الرمادى المبرقش

تتخللـه نوافذ رأسية مستطيلة الشكل ضيقة وطويلة. فى نهاية الممر كان الباب الأسود الأنيق على يمينى مفتوحا فدخلت.

صعدت إلـى الطابق الثانى بعد أن أنهيت إجراءات الاشـتراك وتسديد قيمة المبيت لثلاث ليال، يقودنى شاب نوبى أخـبرنى بأن اسمه "محمد". أدار المفتاح بباب الغرفة الأخيرة الواقعـة فـى منتصـف الردهة الطويلة. غرفة صغيرة مطلية بطلاء أبيض ناصع ، تنتهى بسريرين متقابلين وتتوسطها نافذة مسـتطيلة بعرض شبرين، بينما لا يقل ارتفاعها عن متر، لها إطـار أحمر داكن، يعلوها جهاز التكييف الذى أضفى على جو الغرفة برودة خفضت من توترى قليلا.

استرخيت فى الفراش مستمتعا ببرودة الغرفة المنعشة . تهـيأ النوم لى ممتعا وعذبا خاصة بعد الرحلة الطويلة، ولكنى خفـت أن اسـتغرق فى النوم إذا استسلمت للنعاس، فأسرعت خارجا إلى الحمام الذى يتوسط الردهة الطويلة خارج الغرفة . اغتسـلت ووقفـت تحـت المياه الباردة طويلا. عندما انتهيت ارتديت ثيابى بسرعة وتوجهت إلى المطعم فى الطابق السفلى. تناولت إفطارى ثم خرجت أقصد الشاطئ.

نزلت إلى المدينة أسفل التل الذى يستقر فى أعلاه "بيت الشباب"، بحثت عن وسيلة مواصلات دون جدوى . اقترح علىّ أحـد الـبدو أن ينقلـنى فى سيارته النصف نقل نظير جنيهين فوافقت على مضض.

فـى الطـريق إلـى الشاطئ أثار انتباهى وجه آدمى مـنحوت فى الصخر المكون للجبل القائم على جانبى الطريق.

حاولت استدعاء اسم صاحبه غير أنى أخفقت . سألت السائق فقال: هذا وجه "كينيدى". فى أثناء الاحتلال كان الإسرائيليون يسلطون عليه الضوء ليلا استهدافا للسياح.

توقفت السيارة فى ساحة أسفلتيه واسعة تعلو مستوى الشاطئ الممتد إلى اليسار وقد تراصت الفنادق المكونة من مجموعة شاليهات وكافيتريات على طول امتداده. أعطيت السائق النقود شاكرا قبل أن أهبط من السيارة. بدأت فى البحث عن الفندق الذى يعمل به "خالد" حتى وجدته. سألت عنه فأخبرنى أحد العاملين بأنه نائم، وأضاف أن الفرقة التى يعزف بها لا تنهى عملها قبل الصباح.

عبرت المشاية المبلطة التى تفصل الفنادق والكافيتريات عن الشاطئ وسرت بمحاذاة البحر. كانت الأمواج هادئة والمياه شديدة الزرقة. على بعد أمتار خرجت فتاة شقراء شعرها طويل من مياه البحر وسارت فى تثاقل باتجاه الفندق. ذكرنى جسدها النحيل المتناسق بـ "نورا" . عاودنى ذلك الإحساس الثقيل.

كنت أجردها من ثيابها وأتركها له يعبث فى جسدها كيف يشاء. فيما ينطلق صراخها من أعماقى . صراخ شبق يبح بسبب صوتها تدريجيا. ويرتجف جسدها من شدة شهوتها. كنت أراها تمسد له جسده. وأعرف أنها ستحاول إظهار أنه التجربة الأولى فى حياتها. وستتظاهر، قطعا، بأنها لا تجيد التقبيل. ولكنها سوف تنهش له ظهره بأظافرها. كنت أعرف أنها ستعطيه كل شىء عن طيب خاطر. وكان هذا هو بالتحديد ما يفقدنى صوابى وعقلى.

-٣-

سرت متهدج الأنفاس فيما كان الممر الذى سلكته يضيق تدريجيا حتى وجدت نفسى أمام حائط سد لا توجد به منافذ. تحسست الجدار بيدى علنى أجد ما أستدل من خلاله على وجود أى منفذ دون جدوى. بدأت أطرق بكفى على الجدران برفق قبل أن تنتابنى حالة هستيرية جعلتنى أسرع بالطرق فى كل مكان حتى تناهى إلى سمعى صوت كأنه آت من زمان سحيق. ولكنى لم أفهم منه شيئاً. بعد لحظات شاهدت فى أقصى ركن الجدار إلى الأسفل إضاءة شاحبة أسرعت باتجاهها لأجد كوة صغيرة. نزلت على ركبتى وأدخلت رأسى من الكوة فلم أستطع رؤية أى شىء، دفعت بنفسى داخلا. وجدت مجموعة من الرجال أطلقوا شواربهم واللحى يفترشون الأرض فى شبه حلقة دائرية وهم يحملقون باتجاهى. كانوا عرايا إلا من مآزر أخفوا بها عوراتهم. سألنى أحدهم أن أقترب، وسألنى عما أبحث عنه فأجبته. فقال لى بصوت رخيم وبنبرة هادئة:

- هذا هو درب الجنة. أطلب من تشتهى حضوره نأت به إليك ولو من زمان سحيق. فكر فى امرأة التقيتها فى أى مكان أو زمان تكن أمامك قبل أن يرتد إليك طرفك.

قدمـــت له وصـــف حبيبتى. قال أعطنى دليلاً أو أثراً. قلـــت: لا أملـــك شـــيئاً من هذا. سألنى عن اسم أمها ولم أكن أعرفه. ضحك وهو يردد: لا تقلق سنحضرها إليك اينما كانت. اجلس فى تلك الزاوية حتى تأتيك الإشارة.

مـــر وقـــت طويل قبل أن يلتفت إلىّ الرجل ذو اللحية البيضـــاء الـــذى حدثنى سابقا: والآن أتى دورك . سنخلى لك المكـــان. وســـتأتى إلـــيك من طلبتها. لكنك لن تخرج بها إلا بشروطنا.

بـــدءوا فـــى الخروج متتابعين ، وتركونى وحيدا مع دهشتى وقلقى والظلام.

انـــتظرت طويلا حتى شعرت بأننى أتآكل بفعل القلق والخـــوف والإحســـاس بالـــبرد. فكرت أن أبحث عن طريق للخـــروج لكـــنى لم استطع الحركة.. فبقيت جالسا حتى غالبنى خدر كالنعاس جعلنى أشعر بأننى على حافة نوم طويل.. لفحت وجهى أنفاس باردة . مددت يدى لأتحسس مصدرها فلم ألمس شيئا.. لم أسمع سوى صوت أنفاس منتظمة تنسال على وجهى فتزيد من توترى.

بعد لحظات شعرت بملمس إصبعها لزجا على شفتى . ثـــم علـــى وجنتى وجبهتى .. شعرت بملمس كفين صغيرتين ناعمتين تمران على جسدى برفق . فى اللحظة التالية بدأت فى نزع ثيابى عنى . اندهشت غير أننى لم أستطع حتى أن أسألها عمـــا تفعـــل . عندما انتهت من نزع ثيابى شرعت فى تمرير كفـــيها علـــى جســـدى العـــارى. ملمســـها غريـــب.. لـــزج

وبــارد. زاد إحساســى بالضــيق. وخرجــت الكلمــات منى بصعوبة:

- ألن تخبرينى.. من أنت؟

وجاءنى صوتها بنبرة غريبة بدت كالفحيح:

- أنا من تبحث عنها منذ سنين . سنوات طوال مرت وأنا هنا أنتظر. وها أنت أخيرا قد حضرت . ولم يعد أمامنا إلا ما نفعله الآن. فلنكمل ذلك فتفتح لنا كل الأبواب.

عــاودت طقوســها الغريبة . أحسست بالخفة. حاولت الــنهوض لكنها ألقت بنفسها على . كانت عارية. وبدا ملمس جسدها غريبا وشديد البرودة. لاحظت أنها سكنت عن الحركة. ولوهلة أحسست بأننى مراقب. داخلنى شعور مفاجئ بالخواء. قلت:

- لســنا مضطرين إلى ما نفعله الآن. علينا أن نخرج من هنا أولا لنتحرر ونحقق حلمنا الكبير.

أطلقــت ضــحكتها الصاخبة التى بدت لى موحشة . قالت:

- ألــم يخبروك بأن الدرب صعب وأن الطريق طويل وأن هناك شروطا ينبغى تنفيذها؟

- بلــى.. لكن أرى الأمر أبسط من هذا بكثير. فأنت الآن معى، وليس علينا إلا أن نركض من هنا خارجين.

- بهذه السهولة..؟!

- وما الذى سيحدث؟

- سيغلقون كل الأبواب إذا لم تنفذ شروطهم.

- ومن هم هؤلاء؟
- حراس الكهف والقائمون عليه.
- ولكن هذا هو كهف العشاق..
- وهـــم لـــم يطلـــبوا منا أكثر من ممارسة العشق.. والخروج إلى الحياة..
- هل يعنى ذلك أنهم يراقبوننا الآن؟
- من قال ذلك؟
- كلامك يشى بذلك.

احتدت نبرات صوتها قليلا وهى تقول:

دعـــك من هذا الجدل. أنت لا تستطيع أن ترفض. هم يملكـــون القـــوة . وأنا روحى معلقة بين أيديهم. إذا لم ننفذ ما يقولـــون فأنت تعرضنى للضياع. لن أستطيع الخروج من هنا. ولأن اسمك مكتوب على موضع حرثى فإن أحدا غيرك لا يملك القـــدرة على فعل ذلك، وهو ما يعنى أننى سأعيش بقية حياتى مقبورة هنا، وسيفقد كل منا الآخر إلى الأبد.

- ٤ -

الحرارة الشديدة والشمس الحارقة تسببت فى إحساسى بتوهج وجهى وانسيال العرق من جسدى بغزارة. وصلت إلى الشاطئ، وجدت قرية سياحية صغيرة يفصلها عن الشاطئ مساحة دائرية مرتفعة قليلا عن سطح الشاطئ مهدت بالأسمنت، انتشرت على مساحتها مجموعة من المقاعد التى تحيط بطاولات بلاستيكية ترتكز فى مركز كل منها شمسية كبيرة . فى الخلف كافيتيريا صغيرة يجاورها "بار" تراصت أمامه مجموعة من المقاعد. بجوار الـ "بار" تضيق المساحة لتصبح ممرا يتصل بمبنى أبيض صغير يضم بعض الغرف، امتدت خلفه مجموعة كبيرة من الخيام لراغبى الإقامة بأسعار أقل ، فيما كان الجبل فى خلفية كل ذلك رابضا يحيط بالمكان ويساهم فى صنع جماله.

اخترت أقرب الطاولات إلى الشاطئ . على مقربة منى جلست مجوعة من الشباب بالمايوهات والـ "تى شيرتات" يتأملون البحر فى صمت . على امتداد بصرى شاهدت فتاتين مستلقيتين على بطنيهما تحت إحدى الشمسيات المحفورة فى رمال الشاطئ ترتديان الـ "بكينى"، بينما انسحب شاب

أسـمر رشـيق مـن جوارهمـا متجها إلى مياه البحر شديدة الزرقة.

طلبت من النادل زجاجة "كوكا كولا" ارتشفتها بسرعة وأنا أتابع الفتاتين على الشاطئ.

تأملت المقعد الخالي بجوارى وتمنيت ، رغم كل شىء، أن أرى "نورا" جالسة. تبثنى جمال وجودها وتخلصنى من هذا الشـعور بـالخواء والخـوف غير المبرر وعدم الثقة المطلقة بالبشر وبالقيم وبنفسى .

ملامحهـا محفـورة بمخيلـتى كأننى أراها أمامى لا يسـتخفى علـى خيالى شىء. ملامح وجهها الطفولى وعيناها الضيقتان السوداوان وأنفها الحاد الدقيق وشفتاها شديدتا الرقة، ورقبـتها النحـيلة . حتى جسدها النحيف الذى أحفظ مواضع الشـامات على امتداده. أنامل يديها الرشيقتين بأظافرها المقببة قلـيلا وقدماها الصغيرتان النحيلتان بأصابعهما الأليفة. استدارة ردفـيها هـائلى الـنعومة . قلت لو كنت أمتلك موهبة النحت لصـنعت لهـا تمـثالا يماثلهـا دون الحاجـة لرؤيـتها على الإطلاق.

*　　*　　*

عـاودت الرؤية نظرى المصوب إلى الشاطئ. كانت الفـتاتان متجهتين إلى مياه البحر. رشّت إحداهما الماء بيديها وقدميها على الفتى الأسمر. ركض باتجاهها قبل أن يمسك بها ويحملها ثم يلقى بها فى الماء وكانت ضحكاتها الصاخبة تمتزج بصراخها.

لـــم يحضر "خالد" قبل العاشرة. تعانقنا طويلا.. سألنى عن أسباب حضورى إلى "شرم" وأوضحت له أننى فى إجازة.

- جميل.. تنزل عندى فى الـــ "أوتيل".
- أنا رحت بيت الشباب اللى فى المدينة.
- بيت شباب إيه يا عم؟ هتقعد معايا.
- بعد يومين.. مش دلوقت.
- اشمعنى؟
- أهو.. فرصة الواحد يتعرف على البلد فوق..
- يـــا ابـــنى دى فرصة .. مراتى مسافرة دلوقت وأنا قاعد لوحدى.
- مراتك؟ انت اتجوزت؟
- تقريباً..
- تقريبا؟!
- أيـــوه.. أصـــلى مـــا قلتش لأى حد.. واحدة ألمانية اتعرفت عليها هنا .. حبيتها.. واتجوزنا.
- آخر حاجة ممكن أتصورها..
- شفت بقه.. المهم .. إنت أخبارك إيه؟ لسه مكتئب؟
- يعـــنى.. حصل شوية تطورات.. بس برضه قرفت أكتر..

خرجت إحدى الفتاتين من البحر بمفردها وهى تقترب فـــى اتجاهـــنا. بدا جسدها متناسقا وإن لم يكن له نحافة أجساد الأوروبـــيات. ولـــم تســـتطع القطعـــة العلوية من رداء البحر الأرجوانـــى أن تخفـــى إلا جـــزءا صـــغيرا من مساحة ثدييها

النافريـــن، بينما تناثرت قطرات المياه على الجسد ذى البشرة النحاســية بفعل الشمس، وعندما جاورتنا شعرت بأن نظراتها اســتفزازية.. محملـــة بشبهة ازدراء وشهوانية فجة. وبعد أن تجاوزتنا ألقيت نظرة على ردفيها فهالنى كبرهما. هتفت موجها كلامى لـــ "خالد":

- ايه ده؟!

- يا عم.. أنا راجل متجوز.

- من إمتى الكلام ده..

- آه والله باتكلم جد.. وبعدين ربنا يكفينا شرهم..

- هى إسرائيلية؟

- أيـــوه طـــبعا.. المهـــم أنا لازم أسيبك دلوقت لأننا مســـافرين "دهب" بعد شوية.. عندنا حفلتين هناك ممكن تيجى معانا إذا حبيت.

- لا.. لا.. أنـــا مـــا نمتش من إمبارح.. أنا هاستنى واشوفك لما ترجع.

تناولـــت وجـــبة الغـــداء بمطعم بيت الشباب بسرعة، وصـــعدت إلـــى الغرفة. قابلنى "محمد" فى الردهة وأبلغنى بأن الغـــرفة مـــا زالت خالية. تناولت المنشفة متوجهاً إلى الحمام. تركـــت المـــياه الباردة تنساب طويلاً على جسدى المنهك بفعل الإرهـــاق والحرارة الشديدة. شعرت بالاسترخاء. تذكرت الفتاة الإسرائيلية. تملكتنى شهوة مفاجئة . كانت ذاكرتى تحتفظ بأدق تفاصيل جسدها. لكن ، وقبل أن ألتذ مباشرة ، استدعيت صورة "هدى". ورحت لاهثا أتابع استحمامى.

استقبلنى جو الغرفة الرطب فازداد إحساسى بالانتعاش. ارتميت على الفراش ويبدو أننى استغرقت فى النوم بسرعة.

استيقظت مخدراً. أسرعت إلى الحمام وغسلت وجهى. ارتديـــت قميصا و"شورت" ونزلت إلى الطابق السفلى. وجدت مجموعة من الشباب الأجانب تتوسطهم ثلاث فتيات التفوا حول إحـــدى الطـــاولات بالمطعم مستغرقين فى مشاهدة أحد الأفلام الأجنبـــية بالتليفزيون. طلبت شايا وشربته بسرعة. نظرت إلى الساعة فأشارت إلى العاشرة . سألت "محمد" عن موعد إغلاق الأبواب فأخبرنى بأنهم يغلقونها فى الحادية عشرة .

نزلـــت مـــن الباب الخلفى الذى يؤدى إلى سلم حجرى يصـــل بين بيت الشباب فى أعلى التل وحتى الأسفلت المؤدى إلى المدينة. لم أتحمس للذهاب إلى الشاطئ، فتوجهت إلى أحد المقاهى الذى لمحته فى أثناء نزولى من الأوتوبيس فى الصباح. كـــان المقهـــى مزدحما بملامح من كل مكان ، تناثرت حولهم حقائبهم . اخترت طاولة بعيدة عن الزحام خارج المقهى وطلبت مـــن النادل قهوة ونارجيلة. لمحت الشقراء التى ناضلت لدخول الحمـــام باســـتراحة السويس تجلس بجوار شاب أشقر متناسق الملامح على الرصيف المقابل للمقهى. جلسا صامتين واجمين.

علـــى أقـــرب طاولـــة بجوارى جلست، فتاتان وشت ملامحهمـــا المنمقة وعيونهما الضيقة وبشرتهما الحليبية بأنهما مـــن اليابان . كانت إحداهما تدخن من علبة سجائر "مارلبورو" بيضاء توسطت الطاولة بينهما. واستغرقت كل منهما فى قراءة كتاب.

أحضـــر الـــنادل القهـــوة والنارجيلة ووضعهما أمامى بحماســـة. التقطت "اللى" لأجذب أنفاسا متلاحقة من النارجيلة. مـــن خلـــف سحب الدخان الأزرق التى نفثتها فى تتابع لمحت الفـــتاة الإسرائيلية ومعها الفتى الأسمر يقتربان باتجاه المقهى. كانـــت الفـــتاة تضحك فى صخب بينما اكتفى رفيقها بابتسامة أظهرها شدة بياض أسنانه.

أشار الفتى إلى زاوية داخل المقهى، وجذب الفتاة التى ما إن جاورتنى حتى فاجأتنى بذات النظرة الاستفزازية.. عدت ببصـــرى إلى الفتاة الشقراء على الرصيف المقابل فوجدتها ما زالت صامتة بينما مال إليها صديقها يهمس فى أذنها.

تناولت رشفة من القهوة وعدت أجذب أنفاسا متلاحقة. شـــعرت بـــثقل أنفاسى بسبب الجو المشبع بالرطوبة، ولم تكن نســـمات الهواء التى تلفح وجهى بين آن وآخر قد تخلصت من حـــرارة الـــنهار بعد. أحسست بالاختناق فتوقفت عن التدخين وتجرعت ما تبقى بقدح القهوة فى رشفة.

أجفلت عندما سمعت بجوارى همهمات غامضة تبينت بعـــد لحظات أنها تخص مجذوبا جلس على الأرض غير بعيد عنى، نظرت إليه فوجدته يحدق بى. نحيت نظرى عنه. كانت الفتاة الشقراء فى مواجهتى واجمة وهى تدفع ذراع صديقها عن كتفيها فى تبرم واضح.

استمرار الهمهمات المثيرة للأعصاب بجوارى جعلنى ألتفـــت إليه فى غضب فانفجر ضاحكا مما صعد من إحساسى بالتوتر. تغلب غيظى علىّ فصرخت غاضبا:

- فيه إيه يا عم.. مالك.. إنت هتسوق الجنان ولا إيه؟!
أحدثـــت كلماتى تأثيرا عكسيا فيما يبدو إذ أنها بدلا من أن توقف الضحكات المستفزة جعلته يخبط بكفيه على فخذه وهو يضحك فى هستيرية. قمت وأنا أشعر بدق متواصل فى رأسى مـــن شـــدة الغيظ وتوجهت إلى النادل داخل المقهى ونقدته ما طلب. وفى أثناء خروجى التقت عيناى بعينى الفتاة الإسرائيلية فشـــعرت بـــتوهج وجهى وخرجت مرتبكا. فى خارج المقهى كانـــت الفتاة الشقراء تبتسم فى وداعة لفتاها الذى كان قد أخفى وجهه بجوار أذنها بينما كفه الطليقة تداعب الفخذ العارية.

- ٥ -

خرجت من درب الجنة وكأنى مريض بالحمى. خفتت موسيقى الكهف قليلا ولم أكن استطيع رؤية أى شىء . تذكرت أننى نسيت المصباح فى حجرة السحرة . تحسست طريقى فى الظلام وأنا أسير ببطء فى ممر بدا ضيقا لأنه كان يضخم صوت خطوات أقدامى. من بعيد لمحتَ طيفا شاحبا لم أستطع تبينه. توقفت فجأة وحاولت أن أكتم صرخة إثر ظهور خيال لشخص ما. تراجعت للخلف عدة خطوات فيما كان يقترب منى ببطء. ولم يتوقف إلا عندما وقعت على الأرض. أولانى ظهره وبدأ يسير عائدا غير أنه توقف بعد لحظات والتفت إلىّ. وتسلل إلى سمعى صوت أنثوى آسر وشديد الرقةَ: "هيت لك..."

وبتصاعد لهفة العاشق زادت حماستى وتسارعت خطواتى حتى نهاية الممر الذى انتهى بمدخل ضيق إلى اليسار. أغلقت عينىَ من شدة الضوء الذى يسطع فى الغرفة بتوهج. فتحت عينىَ تدريجيا وقلبى يقفز بين ضلوعى. كانت "نورا" أمامى بجمالها الآسر.. ترتدى غلالة شفافة تكشف تفاصيل جسدها النحيل الأثير. مدت إلى يديها فأقبلت عليها وأنا أهتف:

- نورا..؟!

لم ترد عليّ. وكان وجهها يسطع بابتسامتها الطفولية . اقتربت منها، لكن ما أن لمست يديها حتى صعقتنى المفاجأة . إذ تحولت فجأة إلى فراشة فى حجم كف اليد؛ لجناحيها ألوان حمراء مدهشة ، فيما علا صوت موسيقى الكهف، وبدأت هى فى ضبط إيقاع طيرانها مع الموسيقى فى إنسيابية مدهشة. انطلقت إلى خارج الغرفة وصوتها يتردد رقيقا وحازما: "الواهمون لا مكان لهم فى كهف العشاق".

* * *

خرجت متتبعاً صوت الرفيف. بدت الإضاءة التى تضيء الدرب أمامى كأنها تسقط من كوة فى أعلى السقف. ولاحظت أن السقف ينخفض تدريجيا حتى اضطررت فى نهاية الأمر أن أسير على ركبى ويدىّ. وهكذا تابعت حبوى لاهثا ومتألما من صلادة أرض الممر تحت ركبى وخشونتها.

وصلت فى النهاية إلى ردهة شديدة الاتساع مضاءة بضوء خافت . ارتفعت الترنيمات تدريجيا بحيث صارت أعلى من صوت الموسيقى. بعد لحظات ظهر أربعة رجال لملامحهم قسمات طفولية، عراة إلا مما يخفى عوراتهم، وهم يتراقصون مع الأنغام . ثم ظهرت أربع فراشات راحت تحلق حولهم كأنما تبادلهم الرقص، وسرعان ما تحولن إلى أربع حوريات ذوات جمال صاعق، عاريات تماما . أسندت ظهرى لأقرب جدار وجلست مبهورا أتابع الرقص.. الذى انتهى بتحول الجميع إلى فراشات مرة أخرى . وقبل أن يختفوا كان الصوت الملائكى

يــتردد فى أرجاء المكان.؟. "الواهمون لا مكان لهم فى كهف العشـــاق". وشـــعرت بالإعـــياء مرة أخرى.. ولكنى لم أستطع مقاومة النعاس هذه المرة حتى غفوت.

* * *

استيقظت على صوت نشيج مكتوم. نهضت متثاقلا وأنا أحاول الاهتداء إلى مصدر الصوت حتى وقع بصرى على فتاة كـــالحلم.. آثـــار الدموع لا تزال تبلل العينين شديدتى الحزن.

(فتحـــت عينى فى الصباح فالتقيت بعينيك اللتين كانتا تشـــعان حـــنانا يغمرنى. كنا عاريين لم نزل. وحهك الخمرى الـــناعم يدعونى لتقبيل الخد الأسيل قبل التوقف عند الشفتين الصغيرتين المكتنزتين..).

اقتربت منها قليلا وأنا أنادى عليها .. هند.. هند. لكنها ظلـــت تحـــدق فـــى أعلى السقف كأنها تطالع ملاكا أو تشكو أحـــزانها لطاقة نور فى السماء.. نفس النظرة ونفس الملامح.. ونفس الشكوى.. كأنما كانت عيناها تنطقان: أشكوك للسماء!

(.. قلـــت لـــى هامسة : أحبك .. وطبعت على شفتيك قـــبلة قـــبل أن نتضـــام فى سكون صامتين حيث لا حاجة إلى الكلام.. وعندما نهضت ووجدت ذراعيك يلتفان حول خصرى قبل أن تطبع شفتاك أسفل ظهرى قبلة - هل أنساها أبدا؟! - التفـــت إلـــيك أقبل شفتيك قبل أن أنهض قائما وأنا أضع يدى على سوءتى أخفيهما عنك - ألسنا من الجنة لتونا خارجين؟ - بيـــنما دســـت أنت رأسك تحت الدثار.. وكنت أعرف أنك تبكين..)

حاولت أن أهزها فبدت جامدة كالصخر. كأنها قدت من حجر. ولكنها كانت تسدد إلىّ نظراتها تلك التى كاد قلبى أن ينخلع من شدة الحزن البادى فيها. حاولت أن أمسح الدموع عن وجهها فصارت نظراتها شديدة القسوة. تراجعت وأنا أتحسس البلل على إبهامى. قبل أن أفاجأ بظهور "الصلت".. فصرخت:

- آه .. أين أنت؟ أنقذنى يا صلت!

بدت ملامح وجهه محايدة وكأنها لا تحمل أى تعبير ونبرات صوته شديدة الهدوء:

- ماذا حدث؟

- أنا لا أعرف ماذا أفعل فى هذه المتاهة. كلما أوغلت السير كلما أحسست أنى أبحث عن سراب. وكلما تصورت أننى وجدت من أبحث عنها اكتشف أننى لم ألتق سوى بالأوهام.

- والآن ؟!

- هاهى حبيبتى تجلس أمامى. ولكنها لا تتحرك ولا تجيب علىّ بشىء.

- هل أنت على يقين بأنها من تبحث عنها؟

- أنا لم يعد لدى يقين.. لكنها هى .. هى.

- أأنت الذى تسبب فى أحزانها هذه؟

- لا .. لا.. أنا .. فقط.. يعنى.. أنا لم أقصد شيئا.. لم أشأ إيلامها قطعا..

- وماذا تريد منى؟

- أريد أن أسمع صوتها.

- لا صوت لها. ألم تفهم أنها كالحجر؟

- كالحجر؟! هل تعرفها؟

- هـذه عاشـقة عصـفت بقلبها نزوة عشيق طائش. جـاءت تبحـث عنه في هذا الكهف. ولكنها يأست فاكتفت بأن تكون ما فعله بها.. ارتحق روحها حتى جفت وصارت خاوية وجامدة كالحجر.

قلبي يرتجف . أشعر بالهلع. أقاوم غصة مفاجئة . بينما "الصلت" يسدد نظره إليّ قبل أن يقول:

- لـم يعـد بإمكانك أن تفعل لها شيئا على كل حال. فتعال.. أسمع ما سأقصه عليك علك تستفيد منه شيئا.

انتشـلتني عينا "الصلت" من تأملي للغضون التي تحيط بهمـا إذا أنـه كـان يسدد نظره إليّ بقوة وهو يقول بصوت ثابت:

- قـبل أن أعرف الطريق إلى هذا الكهف كنت حفار قبور. فهذا هو عملي الذي ورثته عن أجدادي تباعا. كنت أحفر بهمـة حريصـاً علـى أن تكـون الحفرة مناسبة لطول الجثة وحجمهـا؛ إذ أذهب لرؤيتها أولا قبل الحفر. ولم يكن مشهدها يـبارح خـيالي طوال الحفر، ولا أهدأ أو يرتاح بالي قبل أن ينـتهي الأمر بإهالة التراب على الحفرة بعد أن أكون آخر من شاهد الرحيل الأخير للكفن الذي ربما كان لأب أو لأم أو أخ أو عشـيقة غـير أنه عندي لم يكن أكثر من جثة سينخرها الدود، وعليّ أن أحفظ كرامتها بالدفن.

وفـي أوقات فراغي كنت أعبث بيدي في الرمال أثناء جلوسي في منطقة القبور التي كنت أقضي بها كل وقتي تقريبا،

وهكذا كانت أصابعى تتسلل رغما عنى لتخط فى الرمال رسوما وخطوطـــا لا معنى لها ولا هدف من ورائها . وبمرور الوقت صارت يداى أكثر دربة ومهارة. ولاحظت أن التشكيلات بدأت تأخذ أشكالا لأجساد كنت قد دققت النظر إليها فى نزعها الأخير أو حتى بعد موتها أثناء الغسيل. أجساد لأطفال قتلهم الجوع أو الوباء ، وكهول قهرهم الفقر والدَيْن، وفتيات رحن ضحية غيرة عمياء أو عودة زوج سكير قضى الشراب على عقله، وسيدات أكـــل الدهـــر عليهـــنَ وشرب ولم يبق فيهن إلا هياكل عظمية مغطـــاة بـــبعض الأوردة الـــتى تظهر بالكاد خلف جلد الجسد الشاحب الممتلئ بالتجاعيد والترهلات.

دُعيــت يوماً إلى منزل فى أقصى القرية. أدخلنى أهل الدار، الذين فاضت وجوههم بحزن قاتم كئيب، إلى غرفة بعيدة عن باقى غرف الدار.

دخلــت الغــرفة ولــم أشمَ رائحة الموت التى كنت قد اعــتدتها فى مثل هذه الحالات. وجدت جسدا نحيلا ممددا على الفــراش الذى توسط الغرفة، وعندما وقع بصرى على الوجه تقلصت روحى، فلم يكنْ هذا إلا وجه ملاك كريم. وحق الله أنى لــم أر فى مثل حسن هذه الفتاة طيلة حياتى. ولم يستطع نحول وجهها وشحوبه إخفاء حسنها، وحتى عيناها الرماديتان، اللتان غارتا قليلا فى محجريهما بفعل المرض، تألقتا بنظرة طمأنينة مدهشة وهى تتطلع إلينا بهدوء.

خرجـــت من الدار مسحورا . ولم تطاوعنى يداى على الحفر لفترة طويلة. لكن خوفى القديم تغلب علىّ فى آخر الأمر، فليس هناك أسوأ مما يمكن أن يفعله الموت بجسدها.

كنـــت أنــتظر كــل يــوم أن يأتينى خبر موتها فيما يصارعنى أمل المقامرين بأنها قد تتجاوز محنتها وتنتصر على المــرض والموت. وفى أوقات شرودى شرعت، ودون وعى مـــنى ، بتشـــكيل جسد يماثل جسدها. وعندما انتبهت إلى ذلك رحـــت أتـــابع ما أفعله بحرص ودقة شديدين. كانت ملامحها محفـورة فى خيالى، ومع ذلك فقد أجلت تشكيل الوجه بعد أن انـــتهى من تشكيل الجسد كله. وقبل أن أنتهى من ذلك فوجئت بالخبر المشئوم الذى حملته إلى أختها الصغرى . جاءت ملتحفة بالسواد يطل من عينيها الرماديتين حزن مخيف. قالت فى نبرة محايدة ودون أدنى انفعال:

- تعـــال.. خـــذ حياتى إلى مثواها الأخير. وانصرفت عنى وهى تسير ببطء شديد.

لم أستطع إخفاء دموعى للمرة الأولى وأنا أضع الجثة الخفيفة، وبحرص، شديد إلى داخل الحفرة دون معاونة من أحد كمـــا أنـــنى لم أستطع أن أكبت نحيبى الذى غافلنى وأنا أهيل عليها التراب.

ولكـــنى لـــم أســـتطع معاودة العمل بعد ذلك أبدا. كما حرصـــت على الابتعاد عن منطقة المقابر خشية الوقوع لأسر الهاجس الذى كان يلح على لفتح القبر.

في الليل كنت أسير في الخلاء غير عابئ بأي شيء . وبلا هدف حتى ينهكني التعب فأقع مغشيا عليّ، ولكني كنت أستيقظ على صوتها يتردد من حولي في كل مكان "تعال.. خذ حياتي إلى مثواها الأخير" وأنهض مفزوعا.. أنادي عليها متخبطا هنا وهناك.. ولكن لا مجيب.

تذكرت النحت الذي كنت بدأته لها بالطين . فأسرعت إليه.. وتابعت عملي في تشكيل القدمين . وعندما انتهيت صرخت فزعا إذ أن الجسد كان مشابها تماما لذلك الذي رأيته ممددا هناك على الفراش. بعدها شرعت في نحت الوجه. لاحظت أن يديّ تتحركان بشكل غريب كأنما تمتثلان لأوامر قوى خفية فلا تزيد قوتها ولا تقل عما يتطلبه أن يبدو كل شيء متماثلا. العينان الواسعتان والأنف الدقيق والشفتان المرسومتان بعناية ، والذقن العريض قليلا على رقته. وعندما انتهيت ودققت النظر فيما صنعت يداي قفزت مبتعداً عنها. فقد بدا مطابقا لها تماما، حتى نظرة العينين اللتين كانتا تتطلعان إلى بنفس الهدوء وتبعثان نفس الشعور بالطمأنينة.

سرت متجها إلى الخلاء حتى أعياني التعب . شيدت كوخا من الخشب والطين. شرعت بعد ذلك في نقل الجسد الذي صنعته من الطين إلى هناك. أعددت بما تيسر لي من أعشاب الصحراء والقش الذي أحضرته من القرية فراشا مددت الجسد عليه ، أتأمله فيما تجيش في أعماقي أحزان لم أعرف مثلها في حياتي، وتناوشني عواطف كانت تفيض بالرغم مني فتدفعني لمحادثتها وكأنها مخلوق حقيقي. حكيت لها كل شيء عن حياتي

وأمـــى البائســـة التى فقدتها فى طفولتى، وعن جدى الذى كان يحفر القبور بيديه دون الاستعانة بأى أدوات حتى أطلقوا عليه اسم "الغراب"، وأختى التى سحروها فراحت تقتل أولادها تباعا حتى اضطر والدى إلى قتلها وصارت تظهر له فى أحلامه كل ليلة حتى مات.

ولكـــنها لـــم ترد بشىء .. فقط تنظر إلى نفس النظرة وبنفس الهدوء مما كان يدفعنى للصراخ متوسلا إليها أن تنطق بـــأى شـــىء أو على الأقل أن تتوقف عن النظر إلىّ. أحسست أننى موشك على الجنون. وبدأت فى الخروج إلى الخلاء طوال الـــنهار دون أن أتوقف عن مناجاتها كأننى على يقين من أنها تســـمعنى ، أحدثهـــا بكل ما يجول فى عقلى، وما أستطيع أن اســـتدعيه فـــى ذاكرتى . وفوجئت بأن صوتها بدأ يتسلل إلىّ ويحيط بى من كل اتجاه ويتردد بلا انقطاع مما جعلنى أفكر فى أن أقـــتل نفسى للخلاص من هذا الوسواس "تعال.. خذ حياتى إلى مثواها الأخير..".

قلـــت أن الحل الوحيد هو أن أعود وأحطم ما صنعته فينتهى كل هذا العبث.

دخلت الكوخ اقتربت منها لألقى عليها نظرة أخيرة قبل أن أبدأ فى تحطيمها. تأملت عينيها فراعنى البريق الذى ينبعث منهما ، ولاحظت أن لون الطين البنى الداكن قد تحول إلى لون أبـــيض صـــاف كالحليـــب. وعندما لمست يديها هالنى أنهما ناعمتان كالحرير.

ألقيــت بنفسى بعيدا عنها حتى راتطمت بجدار الكوخ.
ابتسمت إلىّ قبل أن أسمع صوتها هامسا كالحلم:

- لا تخــف يــا صلت.. ها أنا ذى قد عاودتنى الحياة التى بعثتها أنت فى من روحك وفرط حبك. كنت أسمع مناجاتك مــن مكــانى البعيد وأنت تستدعينى بأفكارك وقوة عشقك التى جعلتــنى أحلــق فى كل مكان بحثا عنك وانتفض بالحنين إلى مــناجاتك والصدق الذى تفيض به نبرات صوتك التى لم أسمع ما شابهها فى حياتى أبدا. أنادى عليك وأنا أكاد أتمزق خوفا من أن تفقد صبرك ويحل اليأس فى قلبك.

ولا أعــرف مــاذا قلــت لها، ولم يكن أمامى مفر من تصديق ما أراه أمامى، فها هى تقف بشحمها ولحمها وروحها وصــوتها أمامى. غير أننى لم أستطع تقبل الأمر ببساطة رغم كــل شىء.. فكيف يتحول ما صنعته من الطين إلى هذه الفتاة الســاحرة الــتى أذاقتنى من فنون العشق وألوانه ما لم أره فى حــياتى أبدا؟ ولم يكن أمامى فى آخر الأمر إلا أن أصدق وأن أعيش حياتى الجديدة التى قدرها الله لى . وقررنا أن نرحل إلى قرية بعيدة لا يعرفنا فيها أحد لنبدأ حياتنا الجديدة .

وبــالفعل انتقلــنا إلــى قرية بعيدة تطل على الساحل، وهــناك بدأنــا حياتنا. تعلمت الصيد وصار هو مصدر رزقى وتآلفــنا مع حياتنا الجديدة، إلى أن جاء يوم كنت أجلس خلال نهــاره فى السوق أبيع ما رزقنى الله به من فيض البحر حتى فاجــأنى صــوت صــراخ كان يقترب منى تدريجيا .. "أنت

الصلت.. أنت الساحر.. لعنة الله عليك.. أنت الذى غيبت "محبوبة".. أنت الذى سحرتها يا كافر.. أين هى؟ أين؟

"كان هذا هو أحد اخوتها. وتصلب الدم فى عروقى وقد فاجأنى ظهوره فى ذلك البلد البعيد. وبعد مناوشات ومعركة بالأيدى وشد وجذب وصخب وسط زحام السوق الذى التف كل من به حولنا استطعت الهرب.. أسرعت إلى "محبوبة".. وهربت معها لا نعرف أين نذهب.. عشنا فى أحد القوارب عدة أيام. ونمنا فى العراء بالصحراء ليال لا أعرف كيف احتملنا قسوتها. تنقلنا بين مداخل الكهوف وعلى ضفاف الوديان حتى استطعنا فى النهاية أن نصل إلى تل عال اكتشفنا أن أهله قد هجروه ، وقررنا أن نبقى به حتى نرى ما يكون. وبمرور الوقت بدأت فى الهبوط بالنهار إلى الوادى لاصطياد ما قد يجود به الوادى والعودة ليلا وهكذا. إلى أن عدت يوماً لأفاجأ بها جالسة تحدق إلى بفزع . ناديت عليها فلم ترد. لمستها.. كانت باردة كالثلج وملمس جسدها صلبا كالصخر. حاولت ما فعلته سابقا غير أن شيئا لم يجد، ولم تفلح كل مناجاتى لأيام وليال متعاقبة أن تغير من الأمر شيئا.. وأدركت أنهم سحروها. كاد الحزن يقتلنى غما عليها وأتيت بها إلى هنا.. إلى هذا الكهف. لا تندهش.. هى الآن تجلس فى هدوء تماما كما هذه الفتاة التى تجلس أمامك.. هل تريد أن تراها ..؟ تعال.. تعال معى..

سرت خلف "الصلت" وكأننى قد نومت مغناطيسيا وفقدت إرادتى نهائيا.. كان كل شىء يبدو غريبا إلى الدرجة

الـــتى جعلتـــنى أشـــعر بفزع حقيقى وتختلط كل الأمور علىّ ويتشوش ذهنى.

اقتربـــنا من الردهة الواسعة التى تتوسطها فتاة نحيفة شـــديدة الجمـــال تـــنظر إلينا بهدوء رغم الفزع الذى يطل من عينـــيها. ارتفعـــت ترنـــيمات الكهـــف إلى أقصى حد لها، بدأ "الصـــلت" يضـــحك بشكل هستيرى. ترتفع ضحكاته تدريجيا.. حدقت فى عينى الفتاة أمامى مذهولا وقد ارتفعت نبرات صوتها لـــتعلو كـــل الأصوات الأخرى : (الواهمون.. لا مكان لهم فى كهف العشاق).

- ٦ -

انتشلتني الطرقات المتتابعة على الباب من النوم فانتفضت . أتاني صوت "محمد" من خلف الباب. نظرت إلى الساعة. أشارت إلى الثامنة. سمعت صوتي محشرجا وأنا أتمتم: شكرا يا "محمد".

التقطت سيجارة وتناولت علبة الثقاب متثاقلا. وضعت المنشفة على كتفي وخرجت أقصد الحمام. عندما جلست على الإطار البلاستيكي أشعلت السيجارة. عندما انتهيت خلعت ثيابي ووقفت تحت المياه الباردة.

نزلت إلى المطعم. تناولت إفطاري بدون شهية وشربت شايا قبل أن أغادر بيت الشباب قاصدا الشاطئ وحملت في يدي كتابا.

عندما وصلت إلى الشاطئ توجهت إلى فندق "هيلتون الفيروز". تذكرت في اللحظة الأخيرة أن "خالد" لن يحضر قبل المساء. كان الشاطئ خالياً كعادته في هذا الوقت من الصباح الباكر إلا من فتاتين افترشتا منشفتين على الرمال بجوار مياه البحر، ممددتين وهما تعرضان ظهريهما للشمس التي لم تكن قد احتدت بعد، عاريتين إلا من قطعتي المايوه اللتين تغطيان جزءا يسيرا من الأرداف.

علـــى امـــتداد الشاطئ المقابل للفندق تناثرت الكراسى والشمســـيات. اخترت أحد الكراسى القريبة من مياه البحر ذى الأمواج الخافتة وجلست .

نهضت إحدى الفتاتين فاصطدمت عيناى بمشهد الثديين الكاعبيـــن ولكـــنى حولـــت عينى عن المشهد العذب بسرعة، وســـمعت ضحكاتهما فالتفت صوبهما بطرف عينى فوجدتهما تـــرتديان الجـــزء العلـــوى من المايوه قبل أن تتوجها إلى مياه البحر.

حضر نادل تابع للفندق ليسألنى عما إذا كنت نزيلا به فأجبت بالنفى، فأوضح أن الشاطئ مخصص لنزلاء الفندق فقط. ابتسمت له مرتبكا واعتذرت لعدم معرفتى بذلك.

توجهت إلى كافيتيريا تقع بجوار الشاطئ الخاص بفندق "مارينا شرم الشيخ". بار صغير تمتد أمامه مساحة مبلطة تتخذ شـــكل نصف دائرة تناثرت عليها مجموعة من الطاولات التى تعلوها الشمسيات. ترتفع هذه المساحة عن مستوى الشاطئ بعدة درجات.

طلبت من الشاب الأسمر الفارع الطول الدائم الابتسام كوبـــا من الشاى. ناولنى إياه فتوجهت به إلى إحدى الطاولات وجلست فى مواجهة مياه البحر. استقرت فى مواجهتى مظلتان كبيرتان من الخشب والخوص على هيئة نجمة تأخذ كل منهما مساحة ضخمة من رمال الشاطئ.

ارتشـــفت من كوب الشاى البلاستيكى رشفات متلاحقة وأنا أتأمل غلاف الكتاب المكتوب عليه "المهاربهارتا".

((.. كــان السكون يعم هذا المكان الذى اتخذه شوناكا فـــى أعمـــاق الغابة بعيدا عن المعمورة ، فلا يقطعه سوى ما يتـــناهى مـــن بعيد، من عواء ذئب يبحث عن طريدة، أو جلبة يحدثهـــا أرنب يقفز هنا وهناك فى حمى الأدغال، أو نعيب يوم على غصن شجرة يتحين عشاءه من مخلوقات الغابة، ولم يكن ضوء القمر يبدد عتمة الليل..)).

اجتذبتـــنى إيقاعـــات هـــندية صدرت فجأة من جهاز "الكاسيت" الكبير المجاور للفتى الأسمر فنظرت باتجاهه. خفض الصـــوت قليلا ليسألنى .. "مش عاجباك؟" فأشرت إليه بإبهامى الذى رفعته بعد أن ضممت باقى الأصابع وهززت يدى مرتين. ابتسم وهو يضع أمامه زجاجتى بيرة فى حماس قبل أن يولينى ظهره وهو يتمايل مع الموسيقى المنسابة.

(.. الفتاة السمراء ذات الشعر الأسود الفاحم المنسدل حتى ردفيها. ملامحها تشبه "فيروز". انساب اللحن ذو الإيقاع الهـــندى فتســـللت من أحضانى. اكتست عيناها بنظرة غريبة حالمـــة.. وادعـــة.. بيـــنما تلـــتمعان ببريق أخاذ، بدت كأنـها مجذوبـــة بقـــوة خفـــية وصوت لا يسمعه غيرها إلى عالم له عـــندها ســـحره الخاص. الموسيقى صارت صاخبة والصوت الأنـــثوى المختلط بها يتفجر بشجن خاص لا أفهم منه شيئاً. الفـــتاه تبتسم للملاك الماثل أمامها فى عذوبة .. تتمايل. ترفع شـــعرها بـــإحدى ذراعـــيها.. تدور فى انسيابية. تخلع ثيابها بنشـــوة حـــتى آخـــر قطعة وهى تتراقص فى وله وتتحسس جســـدها فـــى عشق دون أن يتوقف الرقص الذى بدا متناغما

كأنما يذوب الجسد تماما فى الألحان ليكونا لحنا واحداً أسطوريا. الجسد الخمرى المتناسق تلتمع نعومته بانعكاس الضوء الخافت عليه. تنتظم الخطوات الرشيقة مع الإيقاع فى تناغم وانسيابية. يتداخل الناى الحزين مع اللحن الصاخب الإيقاع فترتجف روحى بينما ينساب الجسد يمنة ويسرة فى دلال. تنسال دمعتان لا ألمحهما إلا عندما تترقرقان على الوجنتين. تلقى بنفسها على الأريكة. تتكور وهى تسند رأسها على كتفها.. ويهتز الجسد الآن فقط على إيقاع داخلى.. لنشيج مكتوم.. كأنه يخفى ما لا يمكن معرفته أبدا..).

انتبهت على صوت صراخ أنثوى. رأيت شخصا يلوح من وسط مياه البحر. اختفى الصوت عندما ارتفع صوت الموسيقى مرة أخرى. خلعت قميصى وألقيت بنفسى فى المياه حتى اقتربت منها. كانت تلهث وهى تأن أنات متتالية وعلى وجهها ملامح ألم شديد. أخبرتنى بأن إحدى قدميها تمزقت بسبب ارتطامها بالشعب المرجانية ، جذبتها حتى الشاطئ . نظرت إلى قدمها اليمنى فوجدتها مهترئة من شدة التمزق بينما يتدفق الدم بغزارة أصابتنى بالفزع، فأسرعت أركض باتجاه الشاب الأسمر الذى كان يرقبنى من بعيد، سألته إذا ما كان لديه قطن وشاش فقال إنه يحتفظ بالقليل منها للطوارئ. أعطانى كيسا من القطن ولفافة شاش أسرعت بهما مرة أخرى إلى الفتاة. طلبت منها أن تضع قدميها فى مياه البحر قبل أن أبدأ فى تضميد الجرح بالقطن وأتبعت ذلك بلف قدمها بضمادات الشاش.

اتكـــأت علـــى كـــتفى وهى تقفز على قدم واحدة حتى وصـــلنا إلـــى حيـــث كنت أجلس. انتزعتْ ابتسامة من ملامح وجهها المكتسية بالألم وهى تلهث:

- أشكرك جدا.. مش عارفة من غيرك كنت ها أعمل إيه..

ســـألتها إن كانت تفضل أن تشرب شيئا فطلبت قهوة، وطلبت أنا أيضاً قهوة.

كانـــت ترتدى "مايوها" أزرق من قطعة واحدة وكنت أحـــاول جاهداً أن أتذكر أين رأيتها من قبل؟ العينان العسليتان الواسعتان والبشرة القمحية . وتذكرت . قلت لها:

- إحنا اتقابلنا قبل كده؟

ضـــيقت عينـــيها قليلا ورفعت أنفها وهى تبتسم كأنها تحـــاول أن تتذكر.. قبل أن تهز رأسها دليلا على عدم تذكرها فقلت:

- فى الاستراحة.. بالسويس.
- آه.. أيوه.. أيوه افتكرت.
- أمال فين صاحبتك؟
- لســـه نايمـــة.. أنا باحب أنزل الصبح بدرى أتمشى شوية وبعدين أنزل البحر.
- جمـــيل.. بس على فكرة أنا عندى إحساس إنك مش مصرية رغم إنك بتتكلمى مصرى كويس.

ضحكت وهى تقول:

- طيب.. عرفت إزاى ؟

- مش عارف.. إحساس.. أو يمكن شكلك..
- إزاى يعنى؟
- يعنى لما شفتك فى الاستراحة قلت الأول إنك أجنبية بس ما كنتش متأكد. يعنى افتكرت إنك ممكن تكونى جزائرية.. مغربية... حاجة زى كده.
- طيب ودلوقت؟
- مش عارف.. ممكن تكونى نص مصرية ونص حاجة تانية ... أوروبا مثلا..
- لا يا سيدى.. أنا أصلا عُمانية.
- عُمانية؟
- أيوه .. ما تعرفش عُمان ولا ايه؟
- لا .. أعرفها .. وأعرف أنها بلد جميلة جدا.. بيقولوا إن الطبيعة فيها مدهشة.
- أيوه.. دا صحيح . بس ماما فرنسية.
- آه.. يعنى زى ما أنا قلت فعلا.. بس إزاى بتعرفى تتكلمى مصرى كده؟
- يعنى .. أنا فى المدرسة كان معظم اللى كانوا بيدرسونا مصريات وكما كان لى أصحاب كتير من مصر.
- فعلا؟
- أيوه.. أنا باحب المصريين جدا..
- وجاية "شرم" ليه.. سياحة ولا شغل؟
- لا.. أنا جاية أجازة..
- وانتى عايشة فى عُمان ولا فى فرنسا؟

- بتدرسى؟
- أيوه.. بحضير دراسات فى الأدب الفرنسى.
- هايل..
- وأنت؟
- أنا أصلا كنت باشتغل رسام.. يعنى رسام كاريكاتير فى جرنال. وباعمل أنا شغلى الخاص.
- وجيت هنا ليه؟
- ... برضـــه حاجة كده زى أجازة.. قرفت من الحياة فـــى القاهرة . الزحمة والروتين ويعنى أسباب خاصة تانية .. فقررت إنى آجى هنا.. أصل أنا لىّ واحد صاحبى بيشتغل هنا.

وقــع بصـــرى فـــى أثناء حديثى على ما بين نهديها. فحدقـــت بعينى بثبات بينما رفعت إحدى يديها وهى تفتعل أنها تحـــك رقبتها فارتبكتْ .. وتوهج وجهى قليلا. أشرت إلى الـــ "تـــى شيرت" الملقى على الكرسى والذى كنت قد خلعته قبل أن أنزل إلى البحر وقلت لها:

- ممكن تلبسى الـــ "تى شيرت" ده. الشمس بدأت تشد شويه.

فنظرت باتجاهه مترددة ثم قالت:

- لا.. لا.. مافيش مشاكل.

قلت لها:

- وانت فى عُمان بقه بتلبسى ايه؟

ابتسمت وهى تقول:

- إيه إزاى يعنى؟

ثـــم انفجرت ضاحكة وهى تشير بإبهامها على امتداد جسدها

- لا.. مـــش كده طبعا.. بس عموما فى عُمان الأمور مـــش زى السعودية .. يعنى عادى. أنا بلبس جيبات وفساتين وبناطـــيل عادى. وبدون حجاب. لكن البنات لسه ما اتخلصتش مـــن التقاليد وكتير منهم بيلبسوا عبايات وحتى الشباب بيلبسوا الزى التقليدى.

- أه.. يعـــنى مـــش زى الســـعودية بس مش لدرجة الكويت مثلا.

- بالضـــبط.. بس تعرف أنا اكتشفت إن بلدكم جميلة فعلا..

- أشكرك .. إنت أول مرة تيجى هنا؟

- أيوه.

- وأنا كمان.

ضحكت وهى تقول

- قصدك جنوب سينا؟

- أيوه .. ما كنتش متخيل إن فى مصر أماكن بالجمال ده. بيقولوا إن "دهب" و"طابا" كمان أماكن جميلة.. رحتى؟

- لا.. لسه .. لكن عاوزه أروح.

- الواحـــد بيحس هنا إنه كأنه اتنقل من مصر إلى بلد تانى

- أنا مريت على القاهرة لمدة يومين قبل ما آجى هنا.. بس انطباعك حقيقى.. يعنى الحياة هنا مختلفة.. يمكن أبسط وفيها حرية أكتر.

أحضر النادل القهوة مبتسما كعادته قبل أن يعود أدراجه وهو يتحرك بسرعة ، أومأت باتجاهه وهى تمسك بقدح القهوة البلاستيكى بعد أن ارتشفتْ منه رشفة قائلة:

- شخص غريب شويه.. مش كده؟

- أيوه.. بس لطيف.. مش عارف جايب منين الإحساس الغريب ده بالسعادة؟

التقت عينانا للحظة. ولكنها كانت كافية لألمح طيف حزن شاحب أطل من عينيها كومضة. قالت:

- مش عارفة ليه ما باقدرش أصدق ملامح الناس. بحس دايما إن فيه وراها حزن مافيش أى حد تانى يقدر يحسه أو يفهمه.

ابتسمتُ لها قبل أن أطبق شفتى على بعضهما وأهز رأسى مؤيدا. وانتبهت فجأة أننى لم أعرف اسمها حتى الآن فقلت لها:

- تخيلى إنى ما عرفتش اسمك لغاية دلوقت!

ضحكت وهى تقول:

- أيوه.. صحيح .. أنا اسمى "بتول"، وانت؟

فأخبرتها عن اسمى.

سمعت فجأة نداء لصوت أنثوى غير بعيد عنا وباقترابه تدريجيا اكتشفتُ أنها صديقة "بتول" التى رأيتها معها فى

الاســتراحة. وعندما اقتربت منا ووقع بصرها على قدم "بتَول" صرخت:

- Oh, mon Dieu ! qu ce que pass?

وأجابتها "بتول"

- rien .. rien ثم أردفت بالعربية

إيش فيكى؟ هذا جرح صغير.. وهو اللى انقذنى.

أشارت إلىّ وهى تقول كلمتها الأخيرة.

تصافحنا أنا وهى. عرفتنى اسمها قائلة: اسمى "أحلام". وبعــد حوار قصير قالت "بتول" إنها تشعر بالتعب وإنها تفضل العــودة إلـــى الفـــندق لتستريح. وقبل أن تذهب أخبرتنى برقم الغرفة التى تقيمان بها وهى تقول:

- ممكــن تمر فى أى وقت. تعال المسا أشرب معانا شاى لو مش عندك ارتباطات.

شكرتها ووعدتها بالمحاولة.

عــدت أتـــابع القراءة فى الكتاب فور انصرافهما وأنا مشغول تماما ببتول.

[... كانــت الفتاة مليحة القسمات، جميلة الوجه، ذات قوام فتان، فاضطرمت الرغبة فى أعماقه واستبدت به، فراودها عن نفسها: يا بنة السحر لقد فتنت بك وطغى على الوجد، أفلا تقبلين بى لأودعك حبى وشوقى.

هلعــت الفتاة إذ وجدت هذا الشيخ المهيب يبرز أمامها كأنه ولج إليها من أبواب الغيب ويخاطبها بما لا تقوى العذارى على سماعه فقاطعته بصوت متحشرج به أثر من الذعر: كيف

يكــون ذلــك أيهــا الشيخ وما زلت عذراء فى طاعة أبى، ولم يمسســنى بشر. ولم أعرف المعصية من قبل؟ رد الشيخ وكأن كلماتها وقعت على أذن صماء: هيا يا فتاة.. فليس فى هذا زلل أو معصــية معــى وأنا الشيخ الزاهد ، هيا يا فتاة فلقاؤنا لقاء الأقدار!

تضرجت وجنتاها بحمرة الخجل، وتابعت عباراتها لا يخفــف من وطأة الوجل ما سمعت من ذلك الشيخ من عبارات بــدرت وكأنما قصد بها أن تهدئ من روعها.. ويلى.. ويلى. كــيف يخفــى الأمر بعد هذا والناس شهود من حولنا على هذا الذى تبغى.

فــرد الشيخ ذراعيه فثار ضباب عظيم لفهما معا، وإذ تلاشــى عاد كل إلى حاله وكأن أمرا لم يقع. ولكن ذلك ما كان لــيخفف من اضطراب الفتاة "ستيافانى". وأخذت الأفكار تنتابها من كل طرف ولا تدرى ما سيكون حالها بعد اليوم..]].

ظهــرت لــى "نورا" من بين السطور بوجهها الأليف تبتســم فــى طفولية. أشعلت سيجارة. وطلبت زجاجة بيرة من الــنادل. نحيّــت الكتاب جانبا وأخرجت دفتر مذكراتى ورحت أقلب فيه قليلا..

".. كــل الطرق المسدودة بينى وبين نورا قادتنى إليها فــى آخر المطاف. ذابت الحدود وانتهى سوء التفاهم واختلاف الــرؤى والإحساس المتبادل باختلاف التركيب النفسى . انتهى كل هذا لتحل محله مودة ورقة وبهجة باللقاء ومناقشات اتسمت على جديتها برومانسية مدهشة".

سألت نفسى ألف مرة .. لماذا أحبها؟ ولم أستطع الإجابة على السؤال. قلت ربما لجمالها الآسر أو لطريقتها فى الحديث ومداعباتها الرقيقة أو لأنها موهوبة ولأننى معجب بطريقتها فى الرسم. وربما لأننى أعجبت بقدميها الجميلتين الصغيرتين عندما رافقتها فى إحدى المرات لشراء حذاء جديد وأثارتنى أنامل قدميها الرقيقة المطلية بطلاء أحمر مبهج.

أحاط بى سؤالى مرة أخرى .. ماذا تريد؟ سؤال يبدو بسيطا غير أن إجابته كانت على العكس شديدة التعقيد. أعرف أننى غير مؤهل لمعايشة حالات الجذب العاطفى. إذ تتدهور حالتى النفسية ويزداد اضطرابى لدرجة تجعلنى لا أستطيع التواصل مع الآخرين.

استقرت فى أعماقى حالة من الخوف الغريزى من فشل التجربة فى المستقبل. وخشيت أن أتعلق بها. فليس هناك ضمانات من أى نوع. ألم أشهد بنفسى حالات حب متوهجة تنهار فى لحظة وأحيانا ببساطة شديدة؟!

وامتزجت مخاوفى بهاجس تجربتى مع "هند". ذلك الهاجس الذى يثير بداخلى مشاعر متناقضة تثور معها الأسئلة مرة ومرات . لماذا انتهت هذه العلاقة إلى ما انتهت إليه؟

كيف واتتنى الجرأة على اتخاذ مثل هذا القرار. إنهاء علاقة تحتوى كل أسباب النجاح ومحاطة بهذه القدرة المدهشة لتفاهم كائنين طوال أربع سنوات كاملة؟ كيف يمكن توصيف ذلك؟ هل كنت أحبها حقا ؟ وإذا كان ذلك صحيحا فلماذا تحول فجأة إلى تلك الرغبة فى عدم الارتباط بها. أين يكمن الخطأ؟

فى العلاقة ذاتها وطبيعتها . أم فى تراكم الاختلافات المستمر. اختلاف الرؤى . إصرارها أن كل مشاكلها ستحل بالزواج وأن كل احتياجاتها الخاصة ومشروعاتها مؤجلة إلى ما بعد الزواج:

لا أعرف . ربما يكمن الخطأ فى أنا النازع إلى المثالية المستحيلة والكمال المطلق أزمتى الأبدية وحلمى المستحيل.

عندما أحضر النادل البيرة شكرته قبل أن أسأله عن اسمه، فاتسعت ابتسامته كثيرا وهو يقول: سعيد.

- اسم على مسمى فعلا.

ابتسم ولم يعلق

ارتشفت رشفة من البيرة قبل أن أعاود القراءة: ".. وهل يحتاج هذا الإطار إلى مواصفات خاصة . وهل هناك أساسا مواصفات خاصة مسبقة أم أنها محض اختلاق لأوهام غير موجودة؟

ولكننى فى النهاية لم أجب على السؤال. خشيت أن تفقد العلاقة بريقها وتلقائيتها باختلاق مبررات قد تكون كلها وهمية. وهكذا أضفت إلى المبررات عادتها الجديدة إدخال يدها فى جيب البنطلون لتقرصنى فى ملتقى الحوض بأعلى الفخذ ونحن نسير فى الشارع. ورحت أردد بعدها أحبها لأنها موجودة. نعم أحبها لوجودها هذا الذى يبهجنى تماما دون غيرها.

أما هى فقد بدأت فى ارتداء الأقنعة ربما لتختبر قدرتى على اكتشاف خباياها أو لتخفى الفراغ الذى تهيم روحها فيه. كانت دائما تحاول الحفاظ على إحاطة نفسها بهالة من الغموض..".

قلبت الأوراق قليلا.. قبل أن أتابع القراءة:
".. أسرتنى نورا بحبها.. بلفتاتها الرقيقة ورومانسيتها الشديدة.. بعد خروجنا من السينما أشارت إلى الخلف فى محاولة منها للفت نظرى . عندما التفت إلى حيث أشارت وقعت عيناى على مشهد رائع للغروب يرتسم فى خلفية كوبرى الدقى فى الأفق البعيد.

وفى المطعم الذى اعتدنا الجلوس فيه بشارع هدى شعراوى همست لى عاوزه أبوسك.

قلت لها مبتسما: أنت حرة.

امتزج بريق الحب بالخجل والجنون فى العينين السوداوين الأسرتين وهى تتطلع حولها قبل أن تطبع على وجنتى قبلة خافتة، فتشتعل كل الألحان الطفولية القابعة فى أعماقى وأحتضنها بعينى وأنا أومئ لها باتجاه الكاميرا المعلقة فى الزاوية المواجهة لنا، فتضع كلتى يديها على رأسها خجلا وتغرق فى الضحك. فى أحيان أخرى كثيرا ما تتحول إلى شخصية شديدة التوتر والعصبية وبدون أسباب واضحة تثور لأسباب تافهة، وتبدأ فى إثارة المشاكل بعد أن تستمر حالتها هذه لعدة أيام أفقد خلالها صبرى.

كانت تنتهز الأوقات التى نقضيها معاً فى شقتى لتمارس بكاءها الصامت الذى يتصاعد تدريجيا الأمر الذى يصيبنى بإحساس قاتل بالعجز حاولت تعويضه بالحنان دون جدوى. وفى خلواتنا هذه كانت تترك لنفسها الحرية فى التعبير

عــن حــبها قــبل أن تطلب منى ألا أتخلى عنها وهو ما كنت أهمس به إليها وأنا احتضنها فى حنو بالغ..".

نحيت الأوراق جانبا. تجرعت ما تبقى من قدح البيرة أمامى. أحسست باختلاط مشاعرى .. لم أتخل عنك يا نورا أبدا فماذا فعلت أنت؟! عند أول منحدر أسرعت بالركض وبأقصى ســرعة ألقيت بنفسك إلى طريق لا أعرف عنه شيئاً بينما أقف وحــدى فى الطريق .. بلا قدرة على إدراك هذا العبث. تتدمر روحى تدريجيا بينما أعجز عن إصلاح ما يتمزق ويهترئ يوما بعد يوم.

ألــن تنتهى هذه الرغبة المدمرة فى تعذيب النفس أبدا. إلى متى سأظل أعايش هذه الأوهام والهواجس.. إلى متى؟!

لملمــت أشيائى. لوحت لسعيد مودعا وأنا فى طريقى إلى بيت الشباب.

-٧-

وكمـــا جـــاء "الصـــلت" فجـــأة رحل فجأة تاركا إياى لوحدتى، وذهولى مما حكاه ، ومما رأيته بعينى ، وخرجت لا ألوى على شىء . لا أعرف أين تقودنى خطاى؟!.

وبـــدا الطريق طويلا.. ممتدا أحياناً وملتويا فى أحيان أخرى.

تناهت إلى سمعى أصوات آهات وأنات اكتشفت لاحقا أنهـــا تخـــص أشخاصـــاً افترشوا الأرض بينما تتضح ملامح وجوههـــم بالألم أو الإرهاق والتعب. حاولت أن أسأل أيا منهم عن أسباب وجوده فى هذه المتاهة أو على الأقل أن يدلنى على نهايـــة الطريق. غير أنهم كانوا يلتفتون إلىّ فى ذعر يحملقون فى وجهى شاردين ثم يعودون إلى ما هم فيه.

فـــى منتصف الطريق تعثرت إثر ارتطام قدمى بما بدا كأنه جسد آدمى تكوم بجوار الجدار الذى أسير بمحاذاته.

سمعت اسمى فأجفلت وكان الصوت الواهن يشتد قليلا. رأيـــت الجســـد مسربلا بالأسود ملقى على الأرض بلا حركة. عـــندما اقتربـــت تبينت من الصوت الذى صارت نبراته أكثر وضوحا أنه يخص أنثى سألتنى بوهن:

- أخيرا حضرت؟!

أخرجـــت مـــن حلقى همهمات غامضة إذ أننى لم أكن أفهم شيئا.

تأوهت بشدة فيما كنت أحاول مساعدتها على النهوض وهى تضغط بأسنانها العلوية على شفتها السفلى. تأملت عينيها فراعنى جمالهما. لم تكن عيناها السوداوان واسعتين غير أنهما كانتا تلتمعان ببريق أخاذ ، ويزداد التماعهما كلما حدقت فيهما وارتجفـــت . عاودنى هذيانى . كأننى آلفها وأعرفها منذ عمر طويل يمتد بطول حياتى.. عاودنى هذيانى.

حدقت بعينى قبل أن تهمس لى برقة شديدة.. اتبعنى . وســـرت خلفهـــا مخدرا، وانتشيت؛ إذ تهيأ لى أننى نجحت فى اختراق المتاهة. وها هى رؤياى قد تحققت أخيرا. نفس الجسد ونفـــس رنيـــن الخلخال وأحسست بروحى تصفو وتتخفف مما أثقلها طويلا.

قـــبل أن ينتهى الدرب بممر بدا أنه ينحرف إلى اليسار خففـــت مـــن سرعة خطواتها قليلا قبل أن تتوقف وتشير إلى بإحدى يديها أن اقترب وتعاود الهمس بذات الرقة.. اتبعنى.

علـــى الجدار المجاور لمدخل الممر لمحت نقشا دققت فـــيه النظر، بسبب خفوت الإضاءة، حتى استطعت أن أتبين ما كـــان مكـــتوبا: "سيدة الجبل". وعندما دلفت إلى الداخل انسابت ترنـــيمات خافتة تصاعدت تدريجيا، ولكنها كانت مختلفة قليلا عما سمعته من قبل إذ اختلطت بها أصوات نسائية رقيقة أقرب ما تكون إلى تنهدات مشبوبة بالشبق أثارتنى قليلا.

كان المدخل يؤدى إلى ممر ضيق كأنه مضاء بإضاءة طبيعية تأتيه من نافذة علوية لم أستطع تحديد مكانها ، وينتهى بمدخـــل آخـــر شبه دائرى يتسع ليفضى إلى قاعة كبيرة ما إن دخلتها حتى لفحتنى نسمات هواء باردة مسّت وجهى مسا لطيفا.

كانـــت القاعة مقسمة إلى أربع غرف ضيقة بلا أبواب وإنما مغطاة بستائر بيضاء شفافة. اثنتان على كل جانب. وفى المواجهـــة كانت هناك غرفة أكثر اتساعا من الأخرى وتعلوها قليلا ببضع درجات. وتتسدل على واجهتها ستائر فخملية شفافة، تشع من خلفها إضاءة متوسطة القوة، كشفت عن أريكة تمددت فوقهـــا ســـيدة اتكأت على إحدى ذراعيها لترتفع بجذعها قليلا، وكانت وضعية رأسها تشير إلى أنها تنظر باتجاهى.

بعـــد لحظات أتانى صوتها بذات الرقة وإن كان مشوبا بغنج واضح: تعال الآن .. هيت لك يا حبيبى.

اقتربـــت منها حتى وصلت إلى الستارة وما إن نحيتها قليلا حتى هتفت يا ربى!

كانـــت السيدة أمامى جميلة جمالا صارخا فيما انسدلت علـــى جســـدها غلالـــة بيضاء شفافة لم تستطع إخفاء شيئا من تفاصيل الجسد الرشيق الفارع الممد أمامى.

مـــدت لـــى يديها بعد أن عدلت من جلستها قليلا وهى تقـــول بدلال: تعال يا حبيبى. لاشك أنك متعب تماماً من طول رحلـــتك. ولكن لا بأس. ستنسى الآن كل آلامك عندما تنام فى حضنى. وعندما ألقمك ثدياى ستتذوق معنى اللذة. وعلى فخذاى ســـتعرف كيف تكون الراحة. وتحت سرتى ستتجدد لذتك إلى الأبد. تعال..

لثارتـــنى كلماتها ونبرات صوتها وأنا أتأمل صورتها مذهـــولاً: عينيها الواسعتين المدهشتين بلونهما الذى يختلط فيه العســلى بالأخضـــر الفـــاتح تحت حاجبيها الغزيرين المشذبين بعناية. وجهها البيضاوى النحيل يحيط بأنف صغير مدبب يرتفع فـــوق شـــفتين دقيقتيـــن تبرز العليا قليلا ثم تنسحب برقة على الجانبيـــن حـــتى تكاد تتلاشى. أما شعرها فطويل ناعم له لون كستنائى فاتح ينسدل على ظهرها. وبدا لون بشرتها كأنه خليط من القهوة باللبن ولون النحاس لا تستطيع الغلالة التى ترتديها إخفاء التماعه بطول الجسد الفارع النحيل الذى يمتلئ قليلا بعد الخصـــر كاشـــفا عن ردفين كبيرين وإن فى تناسق مع الجسد المعجز.

– تعال الآن.. إجلس هنا بجوارى . اخلع ثيابك أولا. واجعلنى ألتحف بجسدك الذى انتظرته طويلا. فلأجلك اغتسلت فـــى بـــركة القمر ليلا، ودلكت جسدى بالدهون. زينت بالكحل عينى وبالشراشف الذهبية ردفاى وجملت جدائلى. ودهنت شفتى بالمرهم العنبرى . أحرقت البخور المعبق بالعود حتى تشربته مسام جسدى. اترك الحرية ليديك لتكتشف ذلك كله الآن. دعهما تعـــرفان كـــم هو منتفخ صدرى من فرط ولعى بمجيئك. كنت أعـــرف أنـــك ســـتأتى وأنك ستضع يدك اليمنى على فرجى، وباليســـرى تداعب شعرى وأنت تضغط شفتى بشفتيك . خذنى الآن يا حبيبى. عانقنى وشدنى إلى صدرك. تلمس فخذى وربت عليهما. قبلهما واضغط عليهما بجسدك.

كـــان صـــوتها يتسلل إلى أعصابى ويدغدغ حواسى. ويتســلل العبق الذى يفوح به جسدها فيختلط بالمشهد السحرى أمامى ويوقعنى أسيرا لرغبتى فيها .

عـــندما اقتربــت منها تأوهت وهى تتأود بينما يخرج صـــوتها شـــبقا وناعمـــا ومغلفا بشهوة عارمة اشعلت رغبتى للدرجة التى جعلتنى أشعر بأننى غير قادر على السيطرة على نفسى.

– أنفاسك تلهبنى . هيا.. انزع هذه الغلالة عنى.

ثم إنها وقفت أمامى فجأة. لم تكن ترتدى سوى مأزرا طويـــلا أســـدلته علـــى جسدها، فلما نضوته عنها تفجر مشهد جســـدها كلـــه أمام عينى مبهرا. الكتفان المرمريتان . والثديان الكاعـــبان فى غير ترهل بحلمتيهما الصغيرتين الداكنتين قليلا، والبطن الهضيم المتماسك والذى التفت حوله سلسلة ذهبية رقيقة تـــتدلى منها قلادة ذهبيةَ تغطى ملتقى الفخذين. عندما وضعت يدى حول خصرها شعرت بأننى أوشك على الاحتراق من شدة حرارة جسدها المتوهج بالشهوة وبتأجج رغبتى . ضممتها إلى صـــدرى فاكتشفت أن جسدى مسربلا بالعرق وتشممت عبقها وأنـــا أضع رأسى فى المنطقة بين العنق والكتف وشعرت بما يشبه الدوار. عندما لمست شفتاى رقبتها تبللتا بما انساب عليها مـــن قطـــرات العرق فيما فاجأتنى هى بصراخها: خذنى بين ذراعـــيك.. أنفاسك تقتلنى. ضمنى إليك بقوة. إطرحنى أرضا وادفق علىّ ماء قلبك.

من خلف الستار سمعت أصوات أنثوية أقرب ما تكون إلـــى أنـــات شبقة صعدت من طقوس اللذة التى فوجئت بنفسى غارقـــا فـــيها بما يزيد من قدرتى على الاحتمال. سمعت أيضا صوتا ذكرتنى نبراته بالرجل الفراشة ولكنى لم أتبين منه شيئا.

ألقـــت بنفســـها فوق الأريكة ثم جذبتنى إليها وفاجأنى ملمس جسدها تحت جسدى فرحت أضمها بقوة. غير أن صوت الـــرجل الفراشـــة ارتفـــع للدرجة التى جعلتنى اتيقظ قليلا من نشـــوتى رغـــم فرط بهجتى بعرى هذه المرأة الساحرة تحتى. أضحت السمع. لاحظت أنها بدأت ترفع صوت صراخها الشبق فأطبقت بشفتى على شفتيها بقوة كأننى أحاول تقبيلها.. وجاءنى الصوت شديد الوضوح هذه المرة.

"إصغ إلىَ فإنى محادثك فى مجاهدة النفس. واعلم أنه علـــى الإنســـان أن ينهض بعمله خالصا من الإثرة بريئا من الأمل بجزاء أو خوف من عقاب فينال عندئذ السعادة الأبدية. اعلـــم أن الملـــذات وما يعرضه الهوى منبع للآلام، وأن اللذة والشهوة هما من العوارض التى ما إن تحل حتى تتبدد. وإنك لـــن تجـــد فيها الفرح الأبدى. إن الشهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضع لنفس القانون: البداية والنهاية.. الولادة والموت..".

انتفضـــت من فوقها وأنا ألهث. وجاءنى صوتها رقيقا ومبحوحا ومحملا بالشبق:

- أرجـــوك.. لا تتركنى.. فقد أشعلت جسدى بالرغبة فلا تتركنى حتى تطفئ ما أشعلته .. أرجوك..

ابتلعـــت ريقـــى عـدة مرات حتى استطعت أن أخرج صوتى متحشرجا:

- أرجوك أنت.. أنا استجبت لك لأننى ظننت أنك فتاة عمرى التى كنت أبحث عنها.

- وما الذى حدث؟ ألم ترى بعينيك ما رأيته فى رؤياك قبل الدخول إلى هنا؟ أرجوك دعك من هذا اللعب.. وتعال.

نظـــرت إليها. ولعنت الرجل الفراشة . لماذا لم ينتظر قلـــيلا قـــبل أن يعطينى إشارته اللعينة؟ حدقت بعينيها للحظات وعـــندما لمحـــت الشبق الذى اختلط فيهما بالرجاء قررت أن أضرب عرض الحائط بالرجل الفراشة وبكل شىء لألقى بنفسى عليها وليكن ما يكون.

غـــير أنه أدرك ما يجول بخاطرى فيما يبدو فبدأ يرفع صوته مرة أخرى:

"إن الشـــهوات والملذات ظواهر عارضة لأنها تخضع لنفس القانون: البداية والنهاية . الولادة والموت.."

وأدركـــت أنهـــا إشارة وتغلب علىّ خوفى. فالمتاهة لا قرار لها. وبرغم اليقين الذى لازمنى عند دخولى الكهف بأننى أدخـــل بمـــنطق المغامر والمقامر. لكنى كنت على قناعة تامة بوجـــود مـــن أبحـــث عـــنها. التقطت ثيابى من أرض الغرفة وأســـرعت خارجـــا. أسرعت خلفى وتابعت توسلها ورجاءها ببقائى. لكنى تسلحت بيقينى مرة أخرى فقاومت كل ما حاولته معـــى مـــن اغـــراءات. ولمـــا لمست إصرارى على رفضى انخرطت فى البكاء وانسالت كلماتها من خلال بكائها تؤكد على

محبـــتها لـــى وتحـــرقها لمضاجعتى. تقنعت بقناع من الحزم وحافظت جاهدا على ملامح وجهى لإخفاء أى شبهة تأثر رغم تحـــرقى لملاطفتها ومداعبتها وضمها إلى صدرى. فى اللحظة التالية بدأت تختفى اختفاءات لحظية لتتخذ بعد ظهورها أشكالاً أخـــرى.. هى أشكال النساء اللواتى عشقتهن وتركت كل منهن علـــى روحـــى بصمتها الخالدة. "هند" بنظرات عينيها المفجعة تشكونى للسماء و"نورا" بجنونها وجمالها الخالد وبكائها الأبدى الصـــامت. و"هـــدى" الـــتى ارتبطت عندى بالخطيئة والعجز الجنســـى، ثـــم "بتول" التى كنت أشعر بمرور الأيام أن روحها تحلق حولى دائما رغم سفرها البعيد.

أدركت أن كل هذا لا يتجاوز حد التحايل. وأن ما تفعله هـــذه الســـيدة الفاتنة لا يمكنه أن يخرج عن حدود طقوس اللذة الـــتى تخضـــع لقـــانون الشهوة.. تبدأ وتنتهى ولكنها لا تمتلك عناصـــر الاستمرارية والخلود التى تبقى سرا من أسرار الحب الحقـــيقى الـــذى أبحث عنه بكل ما تمتلكه روحى من قوة فى دهالـــيز هـــذا الكهف ومتاهاته. ويبدو أنها أدركت ذلك إذ أنها تنهدت بيأس ثم ابتسمت وهى تقول:

هل تعرف أنك أحد القلائل الذين مروا بغرفتى دون أن يقعوا أسرى عشقى متوهمين أننى التى جاءوا للبحث عنها. هل شـــاهدت هؤلاء الرجال الذين يمتلئ بهم الممر خارج غرفتى ؟ كلهم عشاقى ؛ أقبلوا علىّ ممتلئين بحيويتهم وطاقاتهم وشبابهم، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود أمام جسدى الذى كان يجدد لذتهم. ولـــم أكن أترك أيا منهم إلا خائر القوى.. خاوية روحه من أى

قـــدرة على عشق أحد بعدى. لكن أحدا لن ينالنى مرة أخرى، وســـيظل يحلم بى طيلة حياته. أما أنت وأمثالك فسوف تفوتكم معرفة لذة وصالى إلى الأبد. ولكن من يدرى فلعلك تدرك من تقامر على وجوده يوما فتعوضك عن ذلك. ولكن ما يدهشنى أن هــؤلاء الذين يقوون على الصمود أمام سحرى وأنت منهم هم بالـــتحديد مـــن يستهوننى.. ربما.. لا أعرف. وعلى كل حال فإننى سأخبرك عن قصتى.. ولكنها قصة طويلة.. فهل ترغب فى سماعها؟

هتفت لها برقة: أرجوك.

أخـــذت تحدق بالسقف لوهلة وكأنها تستجمع أفكارها. وتأملـــتها للحظات لكنى حولت بصرى بعيدا خوفاً من وقوعى تحت تأثير جمالها.

"كنت وأنا بعد فتاة صغيرة أسكن فى مدينة غير بعيدة عن هنا. "مدينة النخيل". ولعل اسمها يوضح أنها كانت ممتلئة بأشـــجار النخـــيل وتجرى خلالها قنوات المياه طولا وعرضا. ولكنها أيضا مدينة ساحلية. وهناك فى أقصى أطرافها المواجه لمـــياه الـــبحر! استقرت ميناء البواخر الكبيرة والتى كان يعج رصـــيفها بالحـــركة والحياة، وبالبضائع من كل صنف ولون؛ الـــتوابل والعطور والأقمشة والخمور التى كنت أحب رائحتها وهـــى تعـــبق فى المكان مختلطة بالتوابل والعطور؛ حيث يتم إنزالها إلى الميناء تمهيداً لنقلها إلى قصر الأمير، والذى أطلق عليه البعض اسم السيد ذى النظر البراق أو الرجل الجبل، عبر القـــناة الأمـــيرية التى تمتد بطول الميناء وتخترق الجبل حتى

تـــنحرف أخـــيرا عبر الشلالات باتجاه القصر. كنت أحب هذه القـــناة أكثر من باقى الينابيع المنتشرة فى المدينة؛ لقربها من القصر والبحر، ولأنها تمتلئ وتجرى من الشلالات القريبة التى تسوقها السيول المنجرفة من فوق الجبال.

كانـــت متعـــتى الكـــبرى فى التنزه على امتداد القناة الأميرية حتى يحين الغروب فأسرع إلى أوسع نقاطها التى تقع تحـــت الشلالات مكونة بحيرة كبيرة، وهناك أخلع ثيابى وألقى بنفسى فيها للاستحمام والسباحة.

عـــندما كـــبرت قليلا وبرز نهداى قالت لى أمى أنت ودعت طفولتك .. وقد نضجت الفاكهة. إياك والبحيرة الأميرية. ولكـــنى لم ألق بالا إلى ما قالته أمى.. إلا أنها اكتشفت عودتى ذات مساء وشعرى ما زال مبللا بماء البحيرة فثارت وصاحت باكـــية: ألـــم أحذرك من الذهاب إلى هناك؟ أنت لست صغيرة الآن. إذا وقعـــت علـــيك عيـــنا الســـيد ذى النظر البراق ماذا ســـتفعلين؟ ســـوف يسلط نظره عليك.. سوف يلجك ويجامعك. فاحذرى.

فكرت فيما قالته أمى وأنا أتخيل السيد ذا النظر البراق، وكنت قد رأيته من قبل وبدا لى لطيفا، وقلت لنفسى إنه لطيف وأنا لا أخشاه. فضربت عرض الحائط بما قالته أمى. عند القناة الأمـــيرية كنـــت أتـــنزه كل يوم، وفى البحيرة الأميرية تحت الشـــلالات أســـبح بلا مَلل. وذات يوم وبينما كنت أسبح تحت الشلالات أحسست بأننى مراقبة، ولكنى تجاهلت إحساسى دون شـــعور بـــالوجل. عندما خرجت من البحيرة عارية، وقبل أن

أجفف جسدى، فوجئت به نفسه.. السيد ذى النظر البراق يقف أمــامى ويســدد نظره إلىّ مبتسما. أخفيت نهدى بيدى. وظل يتأملنى قليلا ثم قال:

- أريد أن أضاجعك.

بهتتنى المفاجأة. ولم أعرف بم أجيبه . لكننى استجمعت قواى وقلت له:

- لا يزال مهبلى ضيقا ولا أستطيع توسيعه.

واســتمر هــو فــى تسديد نظره إلى حازما وإن ظل محافظا على ابتسامته. فزاد ارتباكى وقلت له:

- شــفراى صــغيران جدا. لن أستطيع المجامعة. إن عرفــت ذلك أمى تعاقبنى. إن عرف ذلك أبى يقتلنى. ورفيقاتى سيسخرن منى.

لــم يقل الرجل شيئا غير أنه انصرف فجأة. وذات يوم وكنت أتنزه بمحاذاة القناة الأميرية فوجئت بخادم الأمير يطلب منى الانتقال إلى القارب لأن السيد يرغب فى رؤيتى . رفضت وبــدأت أركــض هاربــة فقفز من القارب حتى لحق بى ، ثم حملنى عائدا غير آبه بصراخى. وضعنى بالقارب . ألقانى على بطنى ثم قيد ذراعى وساقى ، وحاولت التخلص من هذه القيود بكل قوتى ولكن دون جدوى حتى وقعت مغشيا على.

عــندما أفقــت وجــدت نفسى راقدة فى إحدى مزارع القصــب؛ عارية تماما. تفحصت جسدى . كان هو نفس الجسد غير أننى شعرت بأنه غريب عنى. يختلط بروائح غريبة، وعند فخذى وجدت آثارا أدركت منها ما حدث. قاومت هلعى وفكرت

بسـرعة، ولـم يكن أمامى إلا قراراً واحد اتخذته بسرعة.. أن انـتقم لفـرجى المهان. قلت لقد نال منى ما أراد. . لا بأس . ولكنى سآخذ روحه فى المقابل. من سفينته الشامخة التى أهانت فرجى ستخرج روحه.

ذهبت إلى غانية المدينة وطلبت منها أن تستخدم كل ما تعـرفه من فنون الزينة لتبرز جمالى بالشكل الذى لا يستطيع معه أعتى الرجال وأقواهم الإفلات من أسر غوايتى. وانطلقت إلـى القصـر. كنت أخشى أن يتجاهلنى أو يرفض لقائى لكن عيـناه عندما وقعتا على فاضتا بما جعلنى أقول له إننى عرفت مـا فعلـه بـى وإننى وقعت أسيرة لعشقه وهواه. وبدأت فى إغوائـه. ولكـنه لـم يكن فى حاجة إلى غواية . انقض على بشـهوته الوحشـية. لعبـت معه لعبة الإناث المعروفة بالتدلل والتمـنع، ومـع تزايد رغبته تركت له جسدى يعبث به كيف يشاء. وجعلته يقضى منى وطره مرة ومرات. وكلما أحسست باكـتفائه كلما اشتدت رغبتى فى الثأر لفرجى المهان، أشعلت رغبته بكل الطرق حتى خارت قواه. واستمر الأمر على نفس الحـال لعـدة أيـام للدرجـة التى لم تعد للأعشاب والمقويات والوصفات الخاصة القدرة على أن تعيد له حيويته. كنت أعرف أنـنى أقترب كل يوم من تحقيق هدفى. وبعدما كانت الفترات الـتى يحـتاجها للراحة بعد انقضاء لذته قصيرة ، بدأت تطول تدريجـيا حتى وصلت إلى حد عدم قدرته النهوض من فوقى. وعندها أبدأ لعبتى فى إثارة كبريائه وأنا أهمس إليه متسائلة فى خبـث. كـيف ينهار السيد ذو النظر البراق بين فخذى امرأة؟

كانـــت كلماتى تؤجج إحساسه برجولته، غير أن حقويه لم يعد بإمكانهما أن يساعداه بشىء، وانتهى الأمر بأن سفينته الشامخة التى أهان بها فرجى لم تعد تملك شيئا من ماء الحياة.. ولم يكن هناك إلا الدم.

وفـــى اليوم الذى مات فيه أطلق على أهل المدينة اسم "سيدة الجبل". ومع ذلك استمر إحساسى بالمهانة ولم يشف هذا غلـــيلى، قلـــت إن مـــوت هؤلاء الذين يقتحمون أجساد النساء والفتـــيات كل يوم دون أدنى رغبة منهن أو إرادة، وقررت أن انتقم لكل الفتيات اللاتى تعرضن لإهانة فروجهن. تعرفت إلى ساحرات المدينة ليخبرننى عن أسماء الرجال. وانتقمت للفتيات جمـــيعا خاصـــة أنهن كن يحضرن إلى لإخبارى بالوقائع التى يتعرضن لها فيما ينظرن إلى بإجلال وانبهار، فلم يكن على علم بتفاصيل ما أفعله، ومع ذلك روادنى الشعور بأن فرجى أصبح مقدسا رغم أننى لم أستعمله إلا فى ممارسة الانتقام. أما هنا فأنا أقوم بدورى لإيمانى بهذا الكهف ".. كهف العشاق.." حيث أقوم باصطياد من يقع أسيرا للذة الجسد دون الروح لإدراكى أنه لا يستحق المعرفة. فاذهب إلى طريقك.

حدقـــت بعينـــيها مـــبهورا، وأسيرا لجمالهما العميق . اقتربت منها .. أمسكت بيديها وجذبتها قليلا قبل أن أضع شفتى علـــيها شعرت بملمسها شديد النعومة تحت شفتى فقبلتها بتبتل. وتسلل عبقها إلى أنفى فشعرت بالدوار. كان صوتها يتردد فى أعمـــاقى، وتمـــتزج مشـــاهد قصتها فى خيالى بصوت الرجل الفراشـــة. تمنيت أن ينتهى مطافى فى الكهف بين ذراعى سيدة

الجـــبل الفاتـــنة . وأن أضــــع رأسى بين نـهديها وأطلق كل ما احتبسته فى صدرى من أنين طوال سنين عمرى. شعرت بيدها الأخرى تمسد شعر رأسى برقة.

حاولت النـهوض بينما فاجأنى دوار لذيذ خدرنى فطافت روحى فى أطياف ظلام حنون. استسلمت لها وأنا أشعر بأننى خفيف تماما.. وكان كل شىء يتلاشى من أمام عينى فيما ترتفع موسيقى الكهف مصحوبة بترنيمات "سيدة الجبل" الساحرة.

-٨-

لوحـــت لمحمـــد مودعا وأنا أحمل حقيبتى على كتفى مغادرا بيت الشباب الذى لا يتاح المبيت به أكثر من ثلاث ليال. توجهــت إلــى خالد فى الفندق. أخبرنى موظف الاستقبال عند وصولى بأنه قد ترك لى رسالة أخبرنى فيها بأنه اضطر للسفر إلــى الغردقة لمدة أسبوع، وأنه قد ترك لى مفتاح غرفته للبقاء فيها حتى عودته. أشار موظف الاستقبال إلى أحد العاملين وهو يقول لى إنه سيرافقنى إلى الغرفة.

كانــت الغــرفة صــغيرة بهــا حمامٌ على اليمين. فى المواجهة أخفت الستائر البيضاء النافذة المؤدية إلى شرفة تطل على البحر، وأمامها سريران يتوسطان الغرفة ويواجهها جهاز تليفزيون صغير. وإلى يسارى كان هناك دولاب ملابس صغير وثلاجــة. كان خالد قد ترك جيتاراً أسبانياً خشبياً تقليدياً له لون بنى فاتح على فراشه ، وانتشرت مجموعة من أشرطة الكاسيت حــول جهاز كاسيت صغير موضوع على الكوميدينو المجاور للفــراش. فتحت الدولاب فوجدته مكدساً - كعادته قبل الزواج وكمــا ملأ غرفته أيام الجامعة - بصور مختلفة لنساء عاريات

وصورة كبيرة لرغدة تتوسطهم جميعا علقها على الباب الداخلى للدولاب.

أخرجــت ملابســى مــن الحقيبة ورتبتها بأحد رفوف الــدولاب. عندما انتهيت نظرت إلى الساعة فوجدتها تشير إلى الثانية عشرة. ذهبت إلى الفندق الذى تقيم به بتول فلم أجد أحدا فــى غرفتها. خرجت مرة أخرى إلى الشاطئ الذى ضج قليلا بالحــركة. مجموعة من الشباب تركض باتجاه البحر وأخرى تلعــب الكــرة عند الشاطئ، بينما تمددت مجموعة كبيرة من السائحين على امتداد الشاطئ شبه عراة.

اتجهت إلى الكافيتريا التى التقيت فيها بـــ "بتول" أمس. عــندما اقتربت شاهدت فتاتين نرتدى كل منهما "شورت" و"تى شــيرت" تبينــت بعــد لحظة أنهما بتول وأحلام. لوحت لهما فأشارت بتول باتجاهى وهى تخاطب أحلام. اقتربت منهما وأنا أحييهما:

- صباح الخير.

فردتا على التحية.

قلت لبتول:

- رحت لك الفندق فقالوا لى إنك خرجت.

- أيــوه رحنا هنا (أشارت إلى الوحدة الطبية القريبة) عشان أغير على الجرح.

- وإيه الأخبار؟

- لاتمـــام - الحمد لله - إمبارح كنت تعبانة شوية .. بس النهاردة كويس.

- جميل .. ورايحين فين؟
- إحنا كنا راجعين الفندق.. وانت؟
- أنا لسه واصل حالا.. تحبوا تشربوا شاى معايا؟

قالت "أحلام":

- لا.. لا.. أنـــا ما أقدر.. أنا ما نمت من أمس.. لازم أروح الفندق.

ثم نظرت إلى بتول قائلة: جلسى إنت إذا تريدى.. هو يوصلك؟

نقلت "بتول" نظرها بيننا فقلت:

- طبعا.. طبعا أوصلك مافيش مشكلة .. إذا حبيتى.

قالت "بتول":

- أنا عاوزه أقعد معاك. لكن يعنى ما أحب أتعبك.
- لا.. لا مافيش تعب ولا حاجة.
- خلاص.. Ok. انزين أحلام باجلس أنا شوية.

فلوحت لنا أحلام مودعة :

- انزين.. ياللا.. مع السلامة.

أمسـكت بـإحدى ذراعى وهى تتكئ بخفة على ساقها المجـروحة باتجـاه الطاولـة التى جلسنا إليها بالأمس. عندما شـاهدنا سعيد لوح إلينا من بعيد. سألت بتول إذا ما أرادت أن تشـرب قهـوة فأومأت بالإيجاب، فأشرت له بكفى موسعا بين الإبهـام والسـبابة. سـألنى وهو يحرك شفتيه دون أن يصدر صوتا:

شاى؟ فأشرت بيدى نافيا فأعاد حركة شفتيه .. قهوة؟!

فهززت رأسى مؤيدا.
عندما جلسنا سألتها:

- هى صاحبتك ما بتحبش المصريين؟
- أحلام؟ لا.. أبدا. بالعكس .. دى حتى اجتماعية جدا. بس هى فعلا تعبانة . وما نامت من أمس.
- وانت؟
- أنا كنت تعبانة جدا ونمت بدرى.
- انتو لوحدكو هنا؟
- أيــوه.. إحــنا هانطلع من هنا على إيطاليا وحنقابل هناك ناس أصحابنا ونروح معاهم أسبانيا بالسيارة.
- آه.. هايل.

صـمتنا للحظات عندما ارتفع صوت الكاسيت بأغنية "البيتلز" AND I LOVE HER فهتفت:

- يا سلام!
- بتحبها؟
- جدا
- أنا كمان.
- بس اشمعنى أسبانيا؟
- يعنى بلد حلوه .. وما رحناها من قبل.
- ورحت فين طيب؟
- .. أنا رحت سويسرا وإيطاليا.. والمجر.
- هايل

- أصـــل السفر فى أوروبا سهل.. كله بالقطار.. بس أحيانا لما نكون مجموعة كبيرة بنسافر بسيارة.
- طيب، وهنا فى مصر.. رحت فين؟
- زى مــا قلــت لــك أنا جلست فى القاهرة يومين . عاوزه أروح "دهب" و"سانت كاترين" ونفسى أروح "إسكندرية" ضـــرورى وكمان "الأقصر" و"أسوان". مش عارفه هالحق ولا لأ؟
- طيــب إيه رأيك نروح "دهب" سوا.. أنا كما نفسى أشوفها.
- والله؟ يـــا ريـــت. أنا كنت باقول لأحلام. بش مش عارفـــه مالهـــا.. قالت لى إنها مالهاش مزاج تتحرك من هنا. فممكن يعنى نروح سوا؟
- طبعا..
- خلاص اتفقنا.

احضر سعيد القهوة مرحبا بنا فشكرناه. وقعت عيناها على الكتاب ودفتر المذكرات. سألتنى:
- إيه ده؟
- ده كتاب المهابهاراتا.
- ده الكتاب المقدس بتاع الهندوس مش كده؟
- أيوه..
- أصل أنا باحب أقرأ فى الديانات.
- والله ؟ بالمناسبة إنت.. يعنى .. ديانتك؟

ضحكت وهى تتساءل مستنكرة:

- ايه ده؟! طبعا مسلمة.
- يعنى أنا فكرت.. عشان مامتك فرنساوية.
- أيوه ماما فعلا مسيحية لغاية دلوقت. بس أنا مسلمة.
- أنت اتولدت فى عمان؟
- لا.. فـــى فرنســـا.. واتعمدت التعميد الأول بس ما اتعمدتش الثانى.
- ولیکی اسم مسیحی على كده!!
- أيوه.. "أنيت"
- اسم جميل. ده اسم فرنساوى.. مش كده؟
- طـــبعا لأن مامـــا هى اللى اختارته. بس ما حدش بيندهلى بيه أبدا.
- ولا حتى ماما؟
- ولا ماما.
- بس إنت اسمك العربى جميل جدا..
- "ميرسى".
- وكانت دراستك ايه بقى؟
- أنا درست أدب. بابا كان عاوزنى أدرس فى مسقط بـــس مامـــا أصرت إنى أروح فرنسا بعد الثانوية العامة. ولما رحت كنت محتارة أدرس أدب ولا سينما لأنى باحب التمثيل. بس قلت إن دراسة السينما هتكون دراسة تقنية أكثر منها دراسة لتاريخ الفن. ففضلت الأدب لأنى باحب قراءة الأدب والمسرح. ومثلت فى الجامعة أدوار صغيرة.
- مثلتى؟

- أيوه.. أنا باحب التمثيل جدا. على فكرة مش عارفة أقولك إزاى (صممت قليلاً كأنها تستجمع أفكارها) .. شوف أنا باقول لك.. رغم كل اللى بقولوه عن التمثيل ، ورغم إنه مجال سيئ السمعة نسبيا فى العالم العربى.. بس ممتع بشكل غريب.. حاجة كده زى حقنة البنج.

- حقنة بنج؟ هو انت عملت عمليات قبل كده؟

- أيوه .. عملية صغيرة فى عينى.

تذكرت العملية الجراحية التى أجريتها والنشوة التى أصابتنى بعد خروجى من غرفة العمليات.

قلت لها:

- تخيلى إن أنا برضه اكتشفت أهمية التمثيل .

- بتحب تمثل؟

- لا.. يعنى فكرت .. لأنى كنت قريت إن التمثيل مهم لأنه بيخلى الواحد يقدر يعبر عن نفسه.. أصلى أنا خجول جدا وما باعرفش أعبر عن نفسى.. ويمكن عشان كده اتجهت للرسم وحبيته.

مرت أمامنا فتاة نحيلة شقراء ترتدى مايوه بيكينى ساخن لونه أحمر يتأبطها فتى ممشوق القوام له شعر أسود فاحم. تأملت بطن ركبتها وساقيها الجميلتين وهما تلمعان بفعل تناثر قطرات المياه عليهما.

- أنا كمان كنت خجولة ومنطوية وأنا صغيرة. وكان عندى إحساس إنى مختلفة عن البنات التانيين. يعنى شكلى وملامحى. بس لما رحت أوروبا اتعلمت حاجات كتير.. الناس

هناك مش محتاجة تكذب على بعض. بيعملوا اللى هما عاوزينه وبــدون افتعال وماحدش له دعوه بالتانى والتمثيل كمان فادنى كتير.

- أنا خجول من صغرى بس كنت طول الوقت باحاول أتمــرد علــيه . ماكنــتش منطوى أبدا. فكرت فترة إنى أروح لدكتور نفسى بس اكتشفت إنى باتغلب عليه بالشغل والحب.

- إزاى يعنى؟

- يعنى لما باعيش حالة حب بابقى مستقر نفسيا . وده بيخليــنى أشــتغل كويــس وباكون واثق فى نفسى .. لكن فى حــالات عــدم الاســتقرار العاطفى بيحصل لى انهيار نفسى مرعب.

التقطت سيجارة من علبة السجائر ثم قدمت إليها العلبة. نظرت إلى بتردد. ثم قالت:

- ممكن آخد واحدة؟

- طبعاً.. أرجوك.

- أصــل فيه ناس مش بيحبوا البنات يشربوا سجاير. انت رأيك إيه.. يعنى ماتستغربش لما تشوف بنت تدخن؟

- أنا؟ لا.. طبعا.. أنا أولا مافيش أى حاجة بتدهشنى. وبعديــن أنا شخصيا باحب البنت اللى بتدخن، وبعدين هنا فى مصر تدخين البنات بقى عادى.

- أنا أصلا بادخن لما أكون عصبية . بس عندى فكرة إن الرجل الشرقى سواء فى عمان أو غيرها عنده أفكار ثابتة. والتدخين فى بلد زى عمان يخللى البنت كأنها prostitute.

أشـــعلت لهـــا السيجارة أنا أراقبها فنحت وجهها جانبا ونفخت الدخان بشكل أوحى لى أنها تضايقت من مراقبتى لها.

.. هـــل ممكـــن أن يكـــون حضورى إلى هذا المكان الساحر للقاء هذه الفاتنة مجرد مصادفة؟

كنـــت فى أثناء شرودى أحدق على غير قصد منى فى قدميها وقد خلعت "شبشبها" فبانتا أنيقتين ، وبضتين وقد طليت أناملها بعناية بلون أحمر فاتح. عندما رفعت رأسى رأيتها تحدق بعيـــنى مندهشـــة. ولكنى بادلتها التحديق كأنما أؤكد لها أنهما جميلتان وأننى كنت شاردا فنفثت الدخان فى وجهى وهى ترسم ابتسامة بها شبهة خبث.

افـــترش الفـــتى وفـــتاته منشفة كبيرة بجوار الشاطئ. استلقت الفتاة على بطنها وقد خلعت القطعة العلوية من المايوه بينما راح الفتى يضع كريما سائلا على ظهرها قبل أن يتحسسه برفق موزعا الكريم على امتداده.

سألتنى:

- مافيش حاجة من الرسم بتاعك معاك؟
- لا..
- طيب.. مش بترسم هنا؟
- والله لسه مارسمتش. أول حاجة فكرت أرسمها لغاية دلوقت هو أنت.
- أنا؟!
- أيوه.
- وتفتكر إنى أستاهل الرسم؟

- بيتهيألى إنى طول عمرى باحلم أرسم واحدة شبهك بالضبط.
- يا سلام؟
- والله باتكلم بجد. أنا كنت باحلم بواحده شبهك.
- خللى بالك .. الكلام ده خطير.
- خطير إزاى يعنى؟
- يعنى!
- لا.. لا.. بلاش دماغك تروح لبعيد.. عموما أنا هارسمك أكيد.. بس مش دلوقت.

ضحكت الفتاة وهى تدير رأسها باتجاه الفتى عندما وضع يديه على إليتيها. وسرعان ما عاودت الاسترخاء بينما تابع الفتى تحسس فخذيها وساقيها.

ألقت بتول السيجارة بعد أن جذبت منها نفسا أخيرا وسألتنى فيما يختلط صوتها بالدخان الخارج من فمها عن الساعة التى أشارت إلى الواحدة والنصف. فقالت:

- طيب.. أنا لازم أروح دلوقت.. إنت هاتعمل إيه؟
- لازم تروحى دلوقت؟
- أيوه.. تعبانة شوية..
- أنا هاجى معاك أوصلك وبعدين أرجع هنا تانى.. لسه اليوم طويل.
- طيب بس مافيش داعى تتعب نفسك.. يعنى تروح كل ده وترجع تانى.

- لا يا ستى.. تعبك راحه وبعدين "أحلام" مسلماك لى أمانة.

ابتسمت وهى تنهض بتثاقل. وأشرت إلى سعيد بأننى سأعود بعد قليل فأومأ برأسه ولوح لى.

وكان الفتى قد استرخى بجوار فتاته وقد عرضا ظهريهما لأشعة الشمس التى اشتدت قليلا.

عدت إلى الكافيتريا. استلقيت مسترخيا وأمسكت الكتاب معاودا القراءة ".. **وصادف أن كان باند يتجول فى الغابات عند سفوح الهيمالايا ووقع يومئذ على ظبيين يتزاوجان فى خلوة ، وتهيأ له أنه وقع فريسة سهلة فباغت الظبى بخمس سهام ماضيات، فخر المسكين سريعا وهو يرسل صرخات ألم قوية اهتزت لها الغابة. التفت الظبى الصريع إلى قاتله وحدجه بنظرة طويلة وشرع ينطق بلسان البشر:**

أى ذنب جنيت لتقتلنى؟ أى قسوة وأى طبع جلف حملاك على قتلى وأنا لم آت ذنبا ثم ها أنت تأتى فى لحظة المتعة فتمنعنى عنها.. إيه .. إن القساة الأجلاف يغضون الطرف حين يرون الوحوش والبهائم وهى تتزاوج بل إن الأمم المتعادية لا تبادر إلى الحرب قبل أن ترسل إنذارا. ولكنك تجاهلت كل الأعراف حين داهمتنى على حين غرة..".

* * *

احتلت خيالى كتلة الجسد المتماسك ناصع البياض دونما ترهل. كان وجودها معى فى الشقة فى أول لقاء لنا بعد علاقة تليفونية طويلة لا يحمل أى معنى آخر. وكنت أفكر عن

مفـــتاح الكلمـــات الذى سيتيح للجسدين عناقا عاريا يترقبه كل مـــنهما دون إفصـــاح. ورغم أن كلا منا يعرف كل شيء عن الأخـــر تقريـــبا، إلا أنها المرة الأولى التى يقع فيها كلانا تحت وطـــأة تأثير روح الآخر فى المجال المحيط بجسدينا . حاولنا تجاوز الصورة التى كوناها من نبرات الصوت وطريقة الكلام والهمس المحمل بالشبق والشكوى الأليفة وتمسيد الجسد بكلمات معطرة بالحنان وبنبرات يجتهد كل منا فى أن تصل إلى مسام الجســـد عبر أسلاك الهاتف.. كنا نحاول تجاوز هذا كله وتلقى الصورة الجديدة الواقعية بمواصفات لا مجال فيها لأى خيال.

انتهيـــت مـــن إعـــداد الشاى.. وضعت الكوبين على الطاولـــة القريـــبة ثم خلعت قميصى فجأة، وأنا أقول بجدية إن الجو شديد الحرارة . ابتسمت وهى تتأمل صدرى العارى قبل أن تنفخ فى كفيها بعد أن ضمتهما دلالة على إحساسها بالبرودة. قالـــت: تبدو نحيفا، جلست بجوارها على الكنبة وقلت لها إنها جمـــيلة كما تخيلتها، وقالت إننى أكثر وسامة مما وصفته لها. التقت العيون لوهلة كأنما نعطى فرصة لمراكز التصوير بالمخ لتعديل الصورة بما يتلاءم والشكل الجديد.

فاجأتنى عندما بدأت فى تقبيلها بإغلاق فمها تماما، ولم يكن لسانى قادرا على اجتياز أسنانها حتى اضطررت أن أنبهها إلـــى ذلك. كانت تطلق تأوهات مشبوبة بالشبق، وتفتح عينيها كأنهـــا تعيش فى عالم سحرى تلجه للمرة الأولى. اكتشفت أنها ليســـت معـــتادة على التقبيل رغم زواجها الطويل. وفهمت أن زوجهـــا يدخل إلى مهمته بسرعة ودون مقدمات. وعندما ذهبنا

إلى الفراش أكدت لى مرة أخرى أن خبرتها تقتضى الدخول فى المهم. وهو ما لم يكن يعنينى كثيرا. كنت أحتاج إلى المداعبات. أن تضمنى إلى صدرها بحنان. حاولت جاهدا إخفاء الآلام النفسية التى تعتصرنى..

لماذا أنام مع امرأة فى أول لقاء لنا؟ أعرف أن تراكم الألم بسبب فقد "نورا" وخيانتها غير المبررة ينقلنى يوما بعد يوم إلى حافة الجنون. واكتشفت أن ما أفعله مع هذه السيدة المتزوجة لا يؤدى إلا إلى تفاقم الألم.

وهكذا أوليتها ظهرى وكورت نفسى عاريا متأهبا للنوم.. يداهمنى إحساس موحش بالوحدة . راحت تتصاعد بعد ذلك حتى أفقدتنى أية قدرة للتواصل مع الناس.

تسلل صوت منير بأغنية لا أحب أكثر منها.. "الناس نامت إلاى.. الناس نامت إلاك. واقف لك فى الشباك.. باستنى اليوم الجاى..".

وداهمنى طيف "هند" طافيا على الألحان.. كأن الموسيقى كلها لا تثير إلا الذكريات والحنين لأولئك اللواتى صرن بعيدات بعد أن أخذت كل منهن جزءا من روحى وتركننى خاويا إلا من الألم. هند التى قررت رغم قرار الانفصال أن تقضى معى ليلة.. "ليلتنا الأخيرة" أدرك الآن أنها لم تكن تفعل ذلك لنفسها فقط وإنما، وكما كانت تفعل كل شىء، لأجلى أيضا، وكأنها تعرف أننى سأعانى بعدها وحشة الوحدة الأزلية، التى لم تستطع إزالتها كل اللواتى تدثرت بعريهن لاحقا. وهكذا ملأت ليلتنا بالرقص الوديع. بحنانها الدافق

وبدفء جسدها الخمرى الأليف...، وبتوسدى وجهها المشمشى الذى يعبق برائحة حميمة كتلك التى تفرح من الأطفال، وبالحكايات التى تنسال إلى أعماقي وأتلقاها بطفولية. كنت أسلم نفسى إليها.. أثرثر على غير عادتى بكل ما يعن لى. أغضب كالمجانين وأرق كالملائكة. أضع رأسى أسفل بطنها مستكينا مستسلما لدغاغات أناملها ومنتشيا بعبق جسدها. وعندما تسترخى هى.. أقبل إبطها امتنانا وأداعب أذنيها بلسانى وأقبل جسدها كاملا، قبل أن أضع قدميها على صدرى العارى لأدفئهما. كم كان وجودها عذبا.. وكم افتقد كل ما كان بيننا. ليتها كانت أعنف قليلا فى تعبيرها عن حبها ورغبات جسدها. ربما لكان فى إمكانها أن تكبح جماح الطفل العابث فى أعماقى، هذا الذى كسر بيديه ما لم يعرف قيمته أبدا لأجل أن يلهو بألعاب صغيرة أراد بها أن يكتشف العالم! دون أن يعى أنه قد أضاع، وببلاهة شديدة، ما لا يمكن تعويضه.. وأنه فقد إلى الأبد ما لا يمكن أن يعود.

- ٩ -

تجاوزت كل هؤلاء الذين رأيتهم قبل دخولى إلى "سيدة الكهـف" . جالسـين ما زالوا كما تركتهم يتأوهون ويتألمون. سـرت فـى طريق معاكس . أصبح الدرب خاليا بعد لحظات وخفتـت الأصـوات تدريجيا. سمعت صوت وشيش يأتى من مكان قريب غير أننى لم أستطع تحديده. قلت إنها البحيرة التى أبحث عنها. صرخت فزعا عندما انتشلتنى يد من فتحة جانبية فى الجدار المجاور لتجذبنى بقوة إلى الداخل.

رغـم المفاجـأة شـعرت بخجـل شديد من صراخى وفـزعى. سـاعدنى الظـلام الدامـس على تجاوزه بسرعة . وبالـتدريج عاودت عيناى الرؤية بصعوبة بسبب العشى الليلى الذى أعانيه.

يـا سـاااتر يارب.. إيه ده؟ هكذا هتفت لنفسى عندما استوضـحت ملامح السيدة التى اكتشفت أنها أدخلتنى إلى هذه الـزاوية مـن فرط دمامتها. انتشرت التجاعيد فى سائر الوجه وبـدت عيـناها بلا جفون، أما شفتها السفلى فكان لونها شاحبا وأقـرب إلـى البياض، وكأنها تعرضت للاحتراق، فيما تلون طرفا فمها بلون بنى داكن.

سألتنى : هل تبحث عنى؟

جاءنى صوتها محشرجا ذا نبرة غليظة. أسقط فى يدى ولم أعرف ما الذى ينبغى أن أقوله لها.

- ولماذا تتصورين أننى أبحث عنك؟

- النجوم..

- النجوم؟!

- نعـــم.. النجوم وصفت لى رسمك.. وقالت لى إنك ستأتى.

تحاشيت النظر إليها وأنا أسألها:

- النجوم قالت إننى سأحضر إلى هنا بحثا عنك؟

- نعم .. أنت لا تصدقنى.. ولا تستطيع حتى أن تنظر إلى.. ولكن احترس فهذا هو الاختبار.. ليست هذه هى صورتى الحقيقـــية.. لكننى أخطأت خطأ كبيرا وعوقبت وعندما حلمت بالـــنجوم، أخبرونى عن هذا الكهف وقالوا إنه سيكون فرصتى الأخـــيرة فـــى الـــتطهر من إثمى. وعودة وجهى إلى صورته الأولى.

كنت أتمنى ألا أسمعها تقول شيئا عن ممارسة الحب.. إلا أنها استكملت قائلة:

- وهـــذا التحول لن يحدث قبل أن نمارس أنا وحبيبى الحب تحت ضوء القمر.

هتفت لنفسى (يا سلاام).

قلت لها مبتسما:

- أنـــتم فى هذا الكهف تحتاجون لأرنولد شوازنجر أو شمشون!

نظرت إلى ببلاهة.. ثم ركزت نظرها على وهى تقول:

- لا تشـــوش عقلى بما لا أستطيع فهمه. اسمع قصتى أولا.. وسأترك الحكم لك فى نهاية الأمر.

تـــناهى إلـــى سمعى صوت خرير المياه مرة أخرى.. فشعرت بالتململ رغبة فى التحرك باتجاه البحيرة.. لكنى خشيت أن تكـــون هـــذه الماثلة أمامى اختبارا حقيقيا قد يعنى خسرانه فقدان كل شىء .

قلت لها بنفاد صبر: تفضلى..

بـــدأت حكايتها وهى تصور جمالها القديم الذى كانت تحســـدها علـــيه كل صاحباتها، وكنت أتحاشى النظر إليها وأنا استدعى سيدة الكهف إلى مخيلتى وأقارن بينهما مندهشا.. كانت الســـيدة المدهشـــة الجمال وهذه السيدة الدميمة كلتاهما تعانيان وتتألمان.. فمن الذى لا يعانى إذن ؟!

- .. ولكنـــنى لم أستجب لإغراءات الرجال وغزلهم. وإنمـــا كان هناك شخص واحد فقط هو الذى استجبت له.. وقد كان لسوء الحظ من محارمى، ولكنى كنت أحبه . وأستمتع بما يفعله معى. شاهدونا معا ذات يوم. أوسعونا ضربا. وعلقه أبى من قدميه ليومين كاملين.. وعندما حلوا وثاقه كان قد فقد عقله وسار فى الطرقات يهذى كالمجذوب. أما أنا فقد وضعونى فى إحـــدى غرف الدار كالمسجونات لا أرى النور. فقط تأتى أمى

لتضع الطعام. وتأتى إحدى أخواتى لتذهب بى إلى الخلاء دون أن تتكلم معى كلمة واحدة. ومرت الأيام هكذا مُرّة وبائسة.

فـــى الـــنهاية أخـــرجونى من زنزانتى وقالوا لى إنهم ســـيزوجوننى، ولم أر زوجي هذا إلا فى ليلة الزواج. فوجئت بقـــزم دمـــيم أمامى يحدق بى والشهوة تتقافز من نظرة عينيه الزائغتين قبل أن ينقض على بوحشية. تعاركنا طول الليل. فى النهاية خارت قواى. خلع عنى ثيابى وألقى بنفسه فوقى . لكنه لم يفعل شيئا فى نهاية الأمر. وهكذا كان الأمر يتكرر كل ليلة، وكنت أصاب بحالة من التشنج بسبب رفضي له جعلته يقضى لذته بعيدا عنى.

اكتشـــفت بعـــد ذلك أنه يحب الأولاد وأنه لا يستطيع الممارســـة مع الإناث، وفوجئت به يحضر بعض المخنثين إلى بيتى ويمارس كل شيء امامى وهو يتقافز بهيئته المنفرة مهتاجا ومستثارا.

كنـــت أعـــرف أننىأعاقـــب على جرمى الفادح. لذلك حاولـــت تقبل الأمر فى البداية.. ولكننى بمرور الوقت وزيادة وحشيته وممارسته الشاذة وكثرة تفكيرى فى ذلك الذى يطوف فى الشوارع والطرقات وهو يهتف باسمى فإننى بدأت اتعرض لـــنوبات اكتئاب وصلت الى ذروتها فى الليلة التى عرفت فيها أنهـــم قتلوه درءاً للفضيحة. وهكذا أشعلت النار فى نفسى. ولا أعرف كيف أنقذونى أو أين. غير أننى ظللت أهذى طوال أيام حـــتى اســـتعدت عافيتى بالتدريج ولكن بهذا الوجه الذى تراه. وبعدها تركنى ولم يعد يتعرض لى وأغلق على إحدى حجرات

المـــنزل واســـتدعى سيدة كانت تسكن بجوارنا للاعتناء بى ما أمكنها.

وبـــدأت أهـــرب بالـــنوم. وأحلـــم بشـــخص له مثل مواصـــفاتك. بـــل هو أنت تحديدا. يدعونى للحضور إلى هذا الكهف للتطهر والخلاص. وفشلت عدة محاولات للهرب. لكننى فـــى النهاية نجحت فى الخروج فى أثناء وجوده مع أحد هؤلاء المخنثين. وسرت طويلا حتى وصلت إلى هنا.

تمنيـــت أن أستمع إلى أية إشارة من الرجل الفراشة أو "الصـــلت" أو أى أحد.. ولكن دون جدوى . قلت غير معقول، هل يمكننى ممارسة ما منعته على نفسى مع سيدة الكهف لفعله مع هذه السيدة؟!

قلـــت لها: ولكن النجوم أخبرتنى بأننى سأجد ما أبحث عنه عند البحيرة الموجودة داخل هذا الكهف.

فهتفـــت: هذا صحيح.. فالبحيرة تقع فى عمق الكهف وهـــناك توجـــد كـــوة وحيدة تسمح لأشعة القمر بالنفاذ.. إذن فالنبوءة حقيقية.

أســـقط فـــى يدى مرة أخرى ولم اعرف ماذا أقول.. حاولت أن أهدئ نفسى بضمان العثور على البحيرة.

وعادت تقول بابتهاج واضح: أنت محظوظ.. فالطريق إلـــى البحيرة طويل.. خاصة أنها تقع فى أعلى مناطق الكهف وعليـــنا اجتياز سبعة مستويات. وقليلون جدا هم الذين يعرفون منافذ الصعود.. ولكن اطمأن فأنا واحدة منهم.. تعال معى.

- ١٠ -

اقتربت من محطة الأتوبيسات أسفل التل الذى يستقر بيت الشباب فى أعلاه. أسرعت لأسأل عن الأتوبيس المتوجه إلى "دهب" فأخبرنى أحد السائقين بأن موعده بعد نصف ساعة. قلت له:

- عاوز تذكرتين.

- مافيش حجز للميعاد ده. ممكن تقطع التذاكر فى الأتوبيس.

- شكرته . تطلعت حولى حتى لمحتها من بعيد ترتدى قميصا أبيض "وشورت" ضيق بنفس اللون.

وابتسمت لها وأنا أتحرك باتجاهها. عندما اقتربت راحت تحك كفيها ببعضهما دلالة على إحساسها بالبرودة وهى تردد اسمى ثم أردفت:

- صباح الخير.. اتأخرت عليك؟

- صباح الفل.. لا.. أبدا.

تبينت السوتيان الأسود الذى يظهر من خلال قميصها وأنا أقول:

- قدامنا نصف ساعة.. نعمل إيه؟

- نشرب قهوة؟
- فكرة مش بطالة.

توجهنا صوب المقهى المجاور لنا والذى تناثر فى انحاءه مجموعة من الأجانب الذين بدوا وسط أكوام حقائبهم أنهم ينتظرون أى حافلة لاستكمال رحلتهم فى سيناء. طلبنا القهوة من الجرسون.

قلت:

- صاحبتك أحلام دى غريبه شوية.
- .. فيه ناس كتير بيقولوا كده . بس طيبة جدا والله.
- شربت إمبارح كتير. واضح إنها مش متعودة على الشرب.

صمتت لوهلة وكأنها تفكر فى شىء ما ثم قالت:

- أيوه.. يعنى.. أصل عندها شوية مشاكل.

قالت ذلك وأطرقت وهى تنظر أمامها واجمة بعض الشىء . تسللت إحدى يديها تلتقط سيجارة من علبة سجائرها، أسرعت بإشعالها لها وأنا أتأمل عينيها اللتين راقتا لى تماما؛ ربما لأنهما بدتا شديدتى الألفة بما تعلق بهما من آثار النوم.

اقتربت ثلاث فتيات شقراوات من مدخل المقهى، قامت "بتول" لترحب بهن فى حماس. عرفتنى إليهن قبل أن تنخرط معهن فى حوار ضاحك بالفرنسية. ارتدت إحداهن "ترايننج سوت" أسود رسمت على واجهته تفاحة كبيرة بلون البنفسج. وقصت شعرها الطويل على شكل ذيل حصان، بينما ارتدت الأخريتان "شورت" و"تى شيرت". وكانت إحداهما لها ملامح

متناســقة جميلة ولعينيها لون أزرق رائق بدا مدهشا من خلف النظارة الطبية التى خلعتها للحظات وهى تمسحها بمنديل ورقى أبيض.

أحضــر القهوة نادل قصير القامة شديد التجهم. وضع القدحيــن أمــامى. صــب القهوة بسرعة واستدار متوجها إلى الداخــل بنفس الإيقاع بينما كانت بتول تودع صديقاتها اللواتى ابتسمن لى محييات قبل أن يتجهن إلى داخل المقهى.

سألتها فور جلوسها:

- فرنساويات؟

- أيــوه.. اتعرفت عليهن فى القاهرة.. رايحين سانت كاترين.

- هما جايين لوحدهم؟

ابتلعت أول رشفة من القهوة وهى تومئ برأسها قبل أن تزوم بالإيجاب.

شعرت بالطرب واندهشت للنشوة التى ثارت بروحى. مرت على خاطرى مشاهد التجمع أمام الأتوبيس قبل الرحلات أيام الجامعة.

".. الفــتى وفــتاته فــى رحلة العودة الليلية يجلسان متجاوريــن علــى عكــس رحلـــة الذهاب التى كانا يتجاهلان بعضهما البعض خلالها عن عمد.. ويتواطأ الجميع معهما دون اتفــاق بالانضــمام إلــى جماعــة الغناء والرقص فى الركن الصــاخب للأتوبــيس، يبدءان حوارا صامتا بالكفين المغطيين بجاكيت الفتى. تقوم الأنامل بأدوار تتعاقب بين التدليل والحنان

والتشـــكى والعتاب قبل أن تتشابك فى تشبث حميم كأنما تعلن عناقا بدأ لتوه.. وتحفز الجسدان لعناق مشابه.."

تأملت ما آل إليه حالنا أنا و"هند".. ابتسمت بسخرية، ثم إنـــنى رحـــت أطرد من مخيلتى مشهد الرجل غريب الأطوار السـمج الذى أثارنى بضحكاته على هذا المقهى؛ والذى أطبقت صورته على مخيلتى فجأة بدون سبب واضح فقلت لبتول:

- إمبارح كنت مشمشه خالص.

- إيه مشمشه دى.. شتيمه؟

- شتيمه إيه؟ لأ.. مشمشه يعنى.. مشمشه.

- مشمشـــه.. والله مـــش بطـــال.. إنت كمان مشمش خالص.

ضـــحكت وأنـــا أعيد الكلمة التى خرجت مع الضحكة ممدودة بعض الشىء:

- مشمش؟

- أيوه.. بالذات وإحنا بنرقص.

حدقت بعينيها وأنا أسأل:

- اشمعنى؟

- يعنى.. كنت.. مش عارفه. أنا كنت مبسوطة واحنا بنرقص. بس كنت خايفه إن دمى يكون تقيل.

- لا.. لا.. بـــالعكس.. سهرة إمبارح دى بينى وبينك كانت عامله زى حقنة البنج.

أغرقت فى الضحك ثم قالت وكأنها تذكرت شيئا فجأة:

- إيه ده.. الساعة معاك كام؟

نظرت إلى الساعة وأنا أقوم قائلا:

- يااه.. يا دوب نلحق.

عندما وصلنا إلى شاطئ "عسلة" هتفت بتول: مدهش. إلى اليمين استقر مبنى صغير أبيض اللون يتسع لغرفتين بالكاد علقت على واجهته لوحة سوداء كتب عليها بخط أبيض "شرطة عسله". تمتد من بعده الرمال بامتداد الشاطئ على شكل قوس باتجاه اليمين فيما تناثرت طوليا أشجار النخيل التى أضفت على الشاطئ سحرا خاصا.

على الجانب الآخر انتشرت مجموعة من المقاهى والكافيتريات والمحلات والبازارات التى تختص ببيع التحف والهدايا للسائحين، الذين انتشروا مستلقين ومعرضين أجسادهم للشمس فوق بعض الحصر التى فرشت فى مواجهة المقاهى.

توقفنا امام مقهى خف الزحام عنه قليلا. بدا شديد الاتساع ، وقسمت مساحته الداخلية إلى عدة جلسات مشابهة لمجالس البدو ، تتوسط كل منها صينية نحاسية كبيرة، وحولها تتراص بعض المخدات و"الشلت" بألوان زاهية على أرض المقهى المغطاة بالحصير.

اخترنا أحد الأركان البعيدة من المدخل. بجوارنا جلس بعض الشباب يتصايحون فى صخب وقد انقسموا إلى مجموعات؛ بعضهم يلعب "الطاولة" بينما راح فريق آخر منهم يتجاذبون الحديث مع مجموعة من الشباب والفتيات الذين بدوا من طريقة نطقهم للإنجليزية وأجسادهم الضخمة ألمانا، أو هكذا تصورت.

لم نستطع المكوث طويلا فى المقهى بسبب الضوضاء. تجرعـــنا زجاجتى "بيبسى" بسرعة وخرجنا إلى الشاطئ. كانت الشمس قد اشتدت قليلا. اقترحت على بتول أن نسبح قليلا ولم تمـــانع. خلعت "التى شيرت" الذى كانت ترتديه، واكتشفت أنها تــرتدى مايوه بيكينى أسود وليس "سويتان" كما اعتقدت. تركنا ثيابنا على الحصيرة المفروشة بجوار الشاطئ. وعندما وصلنا إلـــى المـــياه وجدناهـــا شديدة البرودة. وكانت الرمال فى أول الشاطئ مغطاة بحصى غليظ وجدنا صعوبة كبيرة فى أن نسير عليه، وبدأت بتول فى التأوه بسبب الجرح فى قدمها. اقترحت علــيها أن نخـــرج.. قالت إن مياه البحر ستكون مفيدة للجرح. سبحت بعيدا عنها، وعندما عدت وجدتها مستلقية على ظهرها وكـــان جسدها يلتمع بفعل انعكاس الشمس عليه. وفور اقترابى منها قالت إنها لم تعد تحتمل أكثر من ذلك فخرجنا وتوجهنا إلى المقهـــى للاغتســـال. عندما انتهينا قررنا أن نتمشى قليلا. فى الثلـــث الأخـــير من الشاطئ تقريبا وجدنا مجموعة من المقاعد والطـــاولات البلاســـتيكية موضوعة بغير نظام أسفل مجموعة متلاصقة من أشجار النخيل.

جلســـنا إلى إحدى الطاولات . حضر أحد الجرسونات إلينا. طلبنا بيره. مسحت بتول على شعرها المبتل قبل أن تطلب منى سيجارة. أشعلتها وقدمتها لها. على رمال الشاطئ بجوارنا تمددت فتاة ترتدى مايوه "بيكينى" له ألوان تراوحت بين الروز والأرجـــوان والأخضـــر. أخفـــت عينيها بنظارة شمس سوداء دائـــرية. ورغم أن ملامحها أوشت بأنها أجنبية إلا أن جسدها

الفـــارع الممتلـــئ بـــدا أقرب إلى أجساد المصريات؛ فلم يكن خصـــرها نحيلا وكانت أردافها كبيرة نسبيا وهى تتمدد . ثنت إحدى ساقيها وأبقت الأخرى مفرودة، وهى تداعب بأنامل يدها اليمـــنى أسفل بطنها بينما تستمع إلى رفيقها النحيف ذى الشعر الكثـــيف الـــذى اســـتلقى إلـــى جوارها وهو يهمس إليها بدون انقطاع.

أحضر النادل البيرة. بعد قليل اقترب منا شخص ممتلئ قلـــيلاً ولـــم تكن نظرات عينيه الواسعتين مريحة. حيانا مرحبا وعرفـــنا أنـــه مديـــر المطعم. وبعد أن تعرف إلينا بدأ يحكى حكايـــات متواصلة عن حياته وسفره على المراكب انطلاقا من دمـــياط إلى أوروبا وما شاهده هناك. كانت لديه طاقة مدهشة على الحكى.

ورغم محاولاتى لمقاطعته إلا أنه سرعان ما يعود إلى حكاياتـــه. قلت لبتول إننى سأذهب لشراء كريم للشمس فأومأت لى وظل هو جالسا.

عدت بعد فترة. وجدتها تجلس بمفردها وإن ظهر على ملامح وجهها الضجر.

قالت:

- شخص سخيف.

- إيه اللى حصل؟

- قعـــد يسألنى إذا كنت مصرية ولا لأ.. ورايحه طابا وعندى أصحاب إسرائيليين.

- إيه الرخامه دى.. أنا ههأزالك أمه دلوقت.

- لا.. لا مافيش داعى أنا قلت له كلام سخيف. لأنه بعد كده قعد يسألنى إذا كنا هنبات هنا ولا لأ.. وأنه عنده مكان لينا. وسألنى إذا كنا عاوزين أى حاجة.

- حاجة إيه يعنى؟

- مش عارفة.. بيتهيألى قصده على الحشيش.

- أما سخيف.. طيب ماتضايقيش نفسك. صمتت للحظة قبل أن أسألها ضاحكاً:

- بس انت فعلاً مش عاوزه حشيش؟

- ضحكت وهى تقوم وتدفعنى قائلة:

يالله نمشى من هنا.

عاودنا السير على الشاطئ. سألتنى عن أسباب مجيئى إلى "شرم الشيخ". وبدون تفكير وجدت نفسى أحدثها عن "نورا". حكيت لها قصتى معها كاملة. وعندما انتهيت سألتنى:

- ولسه بتحبها؟

- مش عارف والله يا بتول. أنا كنت طول عمرى قبل ما أعرفها عنيد جدا. وباقدر أتحكم فى مشاعرى طول الوقت. لكن مش عارف إيه اللى حصل لى معاها.. يمكن لأنها قدمت لى صورة لطفلة متمردة وكشفت لى عن ضعفها. وعشان كده ماقدرتش آخذ موقف منها أبدا. ماقدرتش ألعب معاها لعبة الراجل والست التقليدية. كنت واقف عند لحظة الطفولة والضعف اللى اكتشفتها من خلال العلاقة الخاصة اللى كانت فيها بتبقى زى السكرانة وتكشف ضعفها لآخر مدى. وعشان كده فضلت ألتمس لها الأعذار حتى بعد خيانتها وزواجها. مش عارف.

ثم إننى أطرقت للحظة قبل أن أقول:
- ويمكن يا بتول لأنها مش شبه ماما أبدا.
- إزاى ؟! مش فاهمه.
التزمت الصمت لفترة طويلة قبل أن أقول:
.. أنـــا كنت قبل نورا أعرف واحدة وكان بينا علاقة طويلـــة، وماكانش فيها أى مشاكل. ومافيش حد فى الدنيا كان فاهمنى زيها. بس قررت إنى أسيبها لأنى حسيت إنها مالهاش أى طموحـــات غير الزواج وتكوين بيت. وفى لحظة ما واحدة صـــاحبتنا قالت لها قدامى أنت ما تنفعيش تكونى إلا أم قررت أنهـــى العلاقـــة فـــى نفس اليوم. يمكن أنا حبيت "نورا" لأنها ماتـــنفعش تكـــون أم أبدا. مجنونة . متوترة. كل ساعة بحال. مهمومة بنفسها . مش عارف.
حل الصمت بيننا لوهلة قبل أن تبدأ "بتول" بالحكى عن علاقتين مرت بهما كان بطل الأولى شبيها لأبيها ؛ سلطوى إلى أقصى حد بينما الآخر على النقيض تماما.. ثم أضافت:
- أنا فعلا محتارة.. مش عارفة أنا عاوزه إيه. أحيانا باحس إنى محتاجة لطبيب نفسى. أنا مش قادرة أعرف لوحدى. أحيانا بافكر إنى مش قادرة أحب. رغم إنى رومانسية جدا..
ثم صمتت للحظة قبل أن تسألنى مبتسمة:
- إنت مش ملاحظ حاجة؟
- إيه هى؟
- إنت عندك عقدة "أو ديب" وأنا عندى عقدة "الكترا".
وأغرقنا فى الضحك.

".. الولـــد الصـــغير الجميل يجلس ملتصقا بالأم التى يحبها كثيرا. عندما يحضر الأب ويسلط نظراته إليه يبتّعد الولد متســللا وذلـــيلا ومقررا ألا يعود مرة أخرى إلى أحضان هذه الســـيدة ويفقـــد القدرة على التعبير عن مشاعره لاحقا لـها أو لغيرها أولئك اللواتى يتوق إليهن كثيرا ويصادقهن رغم خجله بحـــثاً عـــن أم جمـــيلة لـــم تمتلك حنانـها إلا واحدة كان عليه بالضرورة أن ينـهى علاقته بها..".

أخبرت بتول بما دار فى ذهنى فابتسمت وهى تسألنى:

- كان بيبرقلك؟

- أيوه.

خرجـــت الكلمة منى بطفولية شديدة حتى أنها أغرقت فى الضحك، فضحكت بدورى.

* * *

فى طريق العودة من "دهب" إلى "شرم الشيخ" استسلمنا للصـــمت واســـتغرقت "بـــتول" فى النوم بعد دقائق من تحرك الأتوبيس.

كـــان خيالى مشغولا بصورتها وبكل ما قالته لى عن حياتها ومشاكلها. ثم بما أخبرتنى به عن "أحلام" بشكل خاص، رغـــم أنها حكت ذلك بشكل مقتضب. قالت إن قبيلتها لا تسمح لفتـــياتها بالزواج من رجال لا ينتمون للقبيلة. وعندما وصلت هـــى إلـــى سن الزواج كانت أعمار الشباب المؤهلين للزواج أصـــغر منها، وهو ما يعنى أنها لا يمكن أن تتزوج بمنطقهم. وإذا مـــا تقدم إليها شخص ما من خارج القبيلة فإنهم لا يكتفون

برفضـــه وإهانته، وإنما أيضا تضييق الحصار عليها والتشكيك فـــى أمـــرها باعتبار أنها التى استدرجته للتقدم إليها. ولكنى لم أستطع فهم ما أخبرتنى به عن علاقة أحلام بشخص من داخل القبـــيلة، ورغم ذلك فقد كادت هذه العلاقة أن تتسبب فى قتلها، والـــتى بسببها أيضا قرروا أن تسافر إلى فرنسا. عندما حاولت أن أفهـــم مـــن بتول طبيعة هذه العلاقة أحجمت عن تقديم أى تفاصـــيل. وكانت هناك إشارة عابرة إلى علاقة خاصة بينهما. حاولـــت استيضـــاح هذه العلاقة وأنا متشكك فى كونها علاقة سحاق.. ارتبكت "بتول" للحظات قبل أن تغير الموضوع تماما. كنـــت أشـــعر بأننى بشكل من الأشكال قد أصبحت أسيراً لهذه الفـــتاة. هل لقائى بها فى هذه الظروف وفى هذا المكان مجرد مصادفة أم أن الأمر أكبر من ذلك؟!

-١١-

أدهشتنى السيدة الدميمة بمعرفتها التامة بدروب الكهف ودهاليزه. أتتبعها وقد زال عنى كل إحساس بالتعب، رغم حركتها السريعة وهى تنحنى لتمر من إحدى الكوات أو أثناء صعودها برشاقة على درج حجرى، أو ركضها فى ممر طويل، أو انحرافها المفاجئ إلى أحد الأبواب الجانبية . وبعدها تتوقف للحظة لتتأكد من أننى لم أفقد خط السير قبل أن تتابع الحركة.

خلال الطريق كانت المشاهد تمر علينا بسرعة .. رجال وسيدات يجلسون صامتين على أرض الكهف. نساء عاريات يركضن فزعا، وخلفهن رجال عرايا ذوو لحى طويلة تصل حتى عوراتهم. وفتيات لهن جمال الحور يقفن فى أركان الكهف وحيدات وهن يبكين بحرقة. ورجال يظلل الحزن وجوههم. رأيت السيدة المتحجرة "محبوبة" وهى محاطة بوجوه لسيدات وفتيات يمررن كفوفهن عليها ويرددن ترنيمات خاصة وتعلو وجوههن ملامح الإجلال. ومررنا على أسرى سيدة الجبل. وبجوار باب مأواها المهيب كانت الألحان الشبقية تتسلل من الداخل. وكلما حاولت أن أخفف من سرعة خطواتى قليلا

تحثنى على الهرولة قائلة إننا قد تأخرنا كثيرا وإننا فى سباق مع الزمن.

بمرور الوقت راودنى شعور مداهم بالإعياء. حاولت أن أجعلها تخفف قليلا من سرعتها غير أنها كانت تؤكد لى لاهثة بأننا سنتعب كثيرا وعلينا الاحتمال.

تناهى إلى سمعى صوت خرير المياه فرقص قلبى إذ أدركت أننا اقتربنا من البحيرة. خشيت أن تطلب منى ممارسة الحب. فكرت فى الهروب منها خاصة أننى قد وصلت تقريبا إلى البحيرة . وهكذا بدأت أتعمد التأخر عنها.. ثم إننى اختبأت خلف إحدى الصخور لفترة، وانتظرت حتى رأيتها تعود بحثا عنى وهى تنادى على فى جزع، وتسللت بعدها مستكملا الطريق إلى البحيرة وحدى.

كانت البحيرة تتوسط باحة حجرية كبيرة انعكس عليها طيف ضوء القمر. نظرت إلى أعلى فاكتشفت أن البحيرة تقع تحت ما يشبه فوهة بركان. وبدا المشهد متلألئا بالنجوم.

سمعت أصوات همس آدمى لم أستطع تحديد مكانها بسهولة. ارتفع الصوت تدريجيا واكتشفت أنه حوار بين رجل وفتاة احتد صوتها فجأة وهى تقول:

– لن أستطيع. صدقتك كثيرا من قبل.. واستجبت لكل مطالبك وأعطيتك كل شيء.. حتى جسدى.. لم أبخل به عليك. ولكنك لم تراع شيئا.. ازداد غرورك.. ورحت تركض وراء امرأة أخرى. اذهب إليها إذن أو إلى غيرها. أنا لست جارية من جواريك.

- أرجوك.. امنحينى فرصة أخيرة.

- أعطيتك كل الفرص. أما الآن.. فأنا آسفة. عرفت آلاما لا تطاق بسبب غرورك وتفاهتك. وبعدها عانيت الوحدة القاتلة . فعلت كل شيء لأنسى خيانتك دون جدوى. ثم إننى لست الإنسانة التى عرفتها من قبل. ربما أنت لا تعرف مدى التغيير الذى تلحقه جراح القلب. هذا القلب لم يعد يحوى إلا خرابا واستعدادا بلا حدود لتدمير أى شخص ولتدمير نفسى أولا.

- أرجوك .. حاولى أن تفهمينى . ما فعلته حدث فى لحظة ضعف. عانيت بعدها طويلا.. واستغرق الأمر منى جهدا كبيرا للبحث عنك حتى وجدتك أخيرا.

- وفر هذا الكلام من فضلك . فلست أنا التى تبحث عنها. ثم إننا تكلمنا من قبل كثيرا. قلت لى يوما إننى التى تسببت فى خيانتك لى. كان هذا قاسيا إلى حد غير محتمل. تريد أن تلعب دور الضحية والجلاد فى وقت واحد. لا بأس. لم أمنع عنك حتى هذه الرغبة. اعتبرت نفسى المخطئة . وقررت أن أتحمل خطأى. وكانت المحصلة هى هذه الخرابة .. إحساس كئيب بعدم الثقة بالنفس ولا بأى أحد، وقلب متعب حتى الإنهاك، وممتلئ بالألم والحسرة التى تروعنى كلما شاهدت رجل وامرأة متحابين. لن أستطيع أن أتصالح مع العالم ومع نفسى بعد الآن. على الأقل ليس من خلالك .. أرجوك.. اذهب الآن.

بدأت فى البكاء الذى تحول بالتدريج إلى ما يشبه حالة هيستيرية تصاعدت عندما اقترب منها وهو يربت عليها وبدأت تضربه بكلتا يديها بعنف وهى تهدده بإلقاء نفسها فى البحيرة إذا اقترب منها، وبدا عنادها قد بلغ مداه فما كان منه إلا أن انصرف مطأطئ الرأس.

بعد انصرافه انخرطت فى بكاء صامت مرير بعد أن انكفأت على وجهها مسندة إياه على إحدى ذراعيها، غير أن بكاءها سرعان ما راح يعلو تدريجيا، ليتحول مرة أخرى إلى بكاء هيستيرى مروع جعلنى أقاوم غصة لاحقتنى فجأة فيما راحت بين بكائها المرير تتساءل صارخة: أنا إيش سويت يا ربى؟ إيش سويت.. أنا ما استاهل كل ذا يارب.. ما استاهل.

بعد مرور فترة بدأت تستعيد هدوءها تدريجيا حتى صمتت تماما. أحسست أنها نامت. هل من الممكن أن تكون هى الفتاة التى استدعتنى إلى هذا الكهف فى تلك الرؤيا / الحلم، وما الذى بإمكانى أن أفعله الآن؟ هل أوقظها.. وماذا سأقول لها؟ هل من الممكن أن تتعرف هى إلىّ فتوفر على كل هذا القلق.. ويبدو أننى استغرقت فى تساؤلاتى وحيرتى حتى غلبنى النعاس بدورى فاستغرقت فى النوم.

* * *

استيقظت على صوت أنثوى مباغت. رأيتها تقف أمام البحيرة وهى تردد كلمات مبهمة وقد أولتنى ظهرها. بعد لحظات خلعت ثوبها الذى لم تكن ترتدى شيئا تحته. كان لمشهد جسدها على وقع السحر ليس فقط لتناسقه المدهش وانعكاس

ضـــوء القمر عليه، وإنما بسبب رؤيتى لخلخال فضى مبرقش زينـــت به قدمها اليمنى. ألقت نفسها فجأة إلى البحيرة، وراحت تسبح بهدوء ذهابا ومجيئا. أو تغطس إلى أعماق البحيرة أحيانا. وأخـــيرا خرجت . أخذت تنفض ذراعيها وتمسح الماء جسدها، ثم أنها عقصت شعرها فى محاولة لتجفيفه. رأيت وجهها للمرة الأولـــى. كـــان تمامـــا كالقمر فى استدارته بينما بدت عيناها السوداوان الضيقتان أشبه بعيون القطط، وتركت شعرها الأسود الحالك لينسدل خلف ظهرها بعدما جففته قدر ما استطاعت.

ارتفـــع صـــوت ترنيمات الكهف قليلا وبدأت هى فى الـــرقص علـــى أنغامهـــا. فبدت بطولها الفارع ورشاقتها أشبه بإحدى شخصيات الأساطير القديمة. وعندما انتهت من الرقص توقفت أمام البحيرة وكأنها تخاطب ملائكة لا يراها أحد سواها:

- هـــا أنـــا ذى حرة تماما.. حرة من كل شىء.. من القـــيود ومـــن ثيابى ومن الحب ومن أى شىء . أما قلبى الذى أذلـــنى فســـوف أدربـــه علـــى القسوة ليصبح فى صلابة هذه الأحجـــار. ربما أننى لن أحتمل هذه القسوة ولكن ذلك سيكون أفضل من الهوان والألم الذى عانيته والذى اغتسلت منه لتوى وللمرة الأخيرة. سأصنع الجمال للعالم، وسأجعل من نفسى مرآة للعاشـــقات يريـــن أنفسهن من خلالى.. سأكتفى بهذا. هذا وعد أشـــهدك عليه يا بحيرة الحب. ويا قمر العاشقين. جربت حظى من العشق وكانت التجربة مريرة بما يكفى.

أسرعت بعد ذلك لترتدى ثوبها. توجهت إليها.. فشهقت منزعجة واتسعت عيناها الأليفتان غير أنها لم تقل شيئا.. حاولت أن أذكرها بنفسي وبالحلم دون جدوى.

حكيت لها قصتى منذ دخولى الكهف وحاولت أن أذكرها بالخلخال، فنظرت إلى نظرة عتاب صارمة وانصرفت دون أن تنطق بشىء. ومرت أمامى فى هدوء مبتعدة كما طيف، وتركتنى أقف مذهولا وقد تضاعف إحساسى بالوحدة فجأة حتى أوجعنى قلبى من شدة كمدى.

ظهر لى الرجل الفراشة.. فنظرت إليه متسائلا عما يحدث. فقال لم بنبرة لم تخل من عتاب:

- لماذا تركت سيدة النجوم وهربت منها إلى هنا؟

- مررت بتجارب مشابهة وخشيت أنها تستدرجنى إلى خطأ.

- كان عليك أن تخلصها من سجن دمامتها وكان ذلك سيصل بك إلى البحيرة فى الوقت المناسب.

- كيف؟

- أخبرتك فى البداية بأن عليك أن تتحلى بالصبر والروية، غير أنك أثبت هلوعك وقلة خبرتك بما فعلت. ولم تفهم.. أن كل شىء بميقات محسوب. وأن أى اختلال فى المواقيت ستكون له عواقب وخيمة. والوقت غير المناسب هو أكبر عدو للعشاق. وها أنت بتعجلك فقدت فتاة البحيرة وفقدتك هى بدورها، وظلت الدميمة فيما تعانيه وربما سيستمر ذلك لأجل طويل.

-١٢-

خرجت عاريا من الحمام دون أن أجفف نفسى ، وبقيت واقفا فى الغرفة لوهلة. لم ينجح استحمامى للمرة الثالثة من إزالة إحساسى بالتوهج أو بتخفيف حدة الغضب والغيظ والضيق الذى يحاصرنى ويشعرنى بالاختناق. ارتديت ثيابى بسرعة وقررت التوجه إلى "البار" الذى يقع فى أول الشاطئ.

توجهت إلى "البار" الخشبى الدائرى الذى يتوسط المكان وطلبت بيرة من "البارمان" رحت أتجرعها بسرعة. لمحت الفتاة الإفريقية التى شاهدتها أمس وهى تدخل من الباب بصحبة إحدى صديقاتها. كانت ترتدى "تى شيرت" أحمر وشورت جينز ينتهى عند أعلى وركها. توجهت إليها فور جلوسها مع صديقتها. حييتها . اقتربت منها مبديا رغبتى فى أن أقدم لها شرابا. ابتسمت وسألتنى عن مكان جلوسى فأخبرتها. قامت معى وتوجهنا إلى البار. شاهدت الشاب الذى كان برفقتها أمس على الباب. تجول بعينيه فى أرجاء المكان وعندما وقعت عيناه علينا اقترب منها فى هدوء. حياها مبتسما فمالت على أذنى وأخبرتنى بأنها ستعود بعد دقائق فهززت لها رأسى.

طلبت "بيرتين" من البارمان محاولا إخفاء ضيقى . بعد دقـــائق عـــادت وحدها وجلست بجوارى . سألتنى عن اسمى فأخبرتها وسألتها عن اسمها فقالت:

- "سوزان".
- من أين؟
- من أثيوبيا. وأنت؟
- أنا مصرى..
- لو لم نكن فى مصر لتصورت أنك لبنانى.
- هل ذهبت إلى لبنان من قبل؟
- لا.. ولكـــنى ذهبـــت إلى دول عربية أخرى ورأيت كثيراً من اللبنانيين هناك.
- شعب لطيف.
- نعم.. جدا.. وأنت ماذا تعمل؟
- مصور فوتوغرافى . لكنى هنا فى أجازة. وأنت؟
- أنا أيضاً فى أجازة . أين صديقتك؟
- أى صديقة؟
- التى كانت ترافقك أمس.
- سافرت.

عـــندما انتهينا من شرب البيرة اقترحت عليها أن نغير المكـــان. قالت لا بأس.. أشرت إلى إحدى الطاولات فى ركن بعـــيد مواجـــه للبحر. فأومأت موافقة وقالت إنها ستذهب إلى صديقتها قليلا.

تأملـــت مـــياه البحر التى عكست صورة "بتول" على صفحتها وهى تبتسم ابتسامتها الجميلة. عادت "سوزان" بعد فترة وجلسنا صامتين لوهلة. أدار الـــ "D. J" أغنية تونى براكستون "UN BREAKE MY HEART".

ســـألتنى ســـوزان: ألا تريد أن ترقص؟ فنهضت على الفور وأنا أهز رأسى بالإيجاب.

توجهـــنا إلى الرقعة المخصصة للرقص وشعرت أننى ثمل بعض الشىء. احتضنتها، منتشياً . عند المقطع الذى تقول فـــيه براكستون WITHOUT YOU I CAN'T" GO OOON كانـــت "ســـوزان" تصرخ بالمقطع ذاته وهى تضمنى بقوة مما جعلـــنى أضمها بقوة أشد حتى إننى رفعتها قليلاً عن الأرض. بانـــتهاء الأغنـــية عدنا إلى مكاننا. تجرعنا رشفتين من قدحى البيرة الموضوعين. قالت سوزان إلى وهى تهمس:

- هل تريد أن تنام معى؟
- جدا..
- كم ستدفع؟
- كم تريدين؟

عرضت مبلغا مبالغا فيه فقلت لها:

- ليس لدى أكثر من ربع هذا المبلغ.
- ركـــزت عيـــناها فى عينى قبل أن تقول بنبرة دلال شديدة:
- لوخيرتـــنى لما طلبت منك شيئاً.. لكنى أساعد أمى وأخواتى.

– أنا لا أكذب عليك. أنا فعلا لا أملك إلا هذا المبلغ.
– نصف المبلغ حتى.. أرجوك.
– صدقينى لو معى ما طلبت ما ترددت.
صمتت للحظة قبل أن تسألنى:
– هل لديك مكان؟
– أنـــا أقيم فى غرفة صديقى.. ومن المحتمل أن يعود اليوم، سيكون من الأفضل لو لديك أنت مكان.
فكرت قليلا.. ثم قالت:
– لا بـــأس. أخــتى تقيم معى بالغرفة.. ولكننا سنجد طريقة.
إنصــرفنا وقد تأبط كل منا الآخر، وكنت أشعر بأننى ثمـــل تمامـــا.. وحلقى جاف. أثناء خروجنا رأيت رفيقها ينظر إلـــيها بسخرية وهو يقول: GOOD BYE MISS JAMICA. وأشارت هى إليه بأطراف أصابعها.

* * *

فتحت باب الغرفة بالمفتاح وتركتنى بالخارج للحظات ثم أشارت بالدخول. كانت الغرفة مقسمة إلى ردهة بها منضدة صـــغيرة و"كنبة" مفصولة بجدار عريض عن الغرفة الداخلية. أمســـكت بيدى وهى تتجه إلى الغرفة الداخلية. أضاءت النور. كـــان هناك سريران متقابلان وعلى أحدهما وجدت فتاة سمراء نحيلة تنام فى رداء نوم قصير. أوقظتها "سوزان" فأخذت تنظر إلـــى بدهشة. وبدءا حوارا بلغة لم أفهم منها شيئا.. أشارت إلى "ســـوزان" خلالـــه عـــدة مرات قبل أن تنظر إلى وتسألنى عن

المبلغ. ناولتها إياه فأعطته لأختها التى قامت وسارت فى تثاقل وابتسمت لى وهى تمر أمامى فاعتذرت لها عن إزعاجها. لم تلتفت لى. أخبرتنى سوزان بانها لا تعرف الإنجليزية.

خلعت سوزان "التى شيرت" ثم "الشورت". كانت تلبس طاقما داخليا أسود بدا لى غير ملائم للون بشرتها السمراء. خلعت السوتيان ثم انكفأت لتخلع حذاءها فتهدل نهداها الصغيران. طلبت منى أن أخلع ثيابى ففعلت بسرعة. أطفأت النور، وذهبت إلى الفراش. عندما احتضنتها بدا جسدها غلاميا. تحسست ظهرها وفخذيها . اكتشفت أن بشرتها ليست ناعمة كأنها خالية من الماء. وكان لجلدها الرطب رائحة لطيفة وكأنها عبقته بعطر كثيف. حاولت أن أتكشف مواقع إثارتها بشفتى فبدت شديدة البرودة. وعندما خلعت سروالها اكتشفت أنها حلقت شعر عانتها تماما. تلمست موضع خصوبتها. أدركت أنها مختونة. طلبت منى أن أخلع سروالى وبدت متعجلة. عندما أعتليتها تذكرت أختها وخشيت أن تكون جالسة لمراقبتنا. فنمت على ظهرى وأنا أقول لها أننى أفضل الأمر هكذا. استفزتنى هرولتها وهى تحاول الوصول بى إلى الأورجازم ، وباستمرار إلحاحها جذبتها من ذراعها حتى صار رأسها مواجها لرأسى وقلت لها هامسا:

- قد تكون هذه الليلة هى عمر علاقتى بك.. ولا بأس أن تطول قليلا..

هدأت تدريجيا وبدأت تهمس فى أذنى بكلمات مشبوبة بغنج سافر، فبدت وكأنها تجتر ذكريات حميمة من علاقات حقيقية سابقة.

عندما انتهينا أسرعت بارتداء قميص نوم وردى اللون التقطته من على الأرض وإعادة ترتيب أشيائها المبعثرة . كنت أرغـــب فى النوم ولكننى إزاء تعجلها السخيف قمت وارتديت ثيابى بسرعة. حاولت أن أشرح لها أننى لم أكن أحتاج أكثر من الـــنوم بيـــن نهديهـــا وأن أستمع لغنائها أو هدهدتها غير أننى استســـخفت الفكـــرة. أثناء خروجى لاحظت أختها نائمة على الكنـــبة وقـــد ارتفـــع صوت غطيطها. اقتربت "سوزان" منى فشكرتها واعتذرت مرة أخرى عن قلة المبلغ، ثم أودعت على جبينها قبلة خافتة.. وخرجت.

*   *   *

كان الشاطئ خاليا. والأفق البعيد بلونه الذى تراوح بين الأزرق الفاتح والرمادى يشير إلى اقتراب الفجر. شعرت بحزن موحـــش ثقيل. اقتربت من مياه الشاطئ وسرت بمحاذاة المياه بيـــنما هواء الفجر الرطب يلفح وجهى فأسرعت من خطواتى. اســـتدعت ذاكـــرتى بـــتول التى سافرت فجأة بعدما تعلقت بها كغريق. كان رحيلها الغامض مثل صدمة. خاصة أن رد فعلها كان لطيفا حينما نقلت لها مشاعرى أمس هنا على هذا الشاطئ فما الذى حدث؟

".. الفـــتى نفسه الذى كان غارقا فى حبه الأفلاطونى الأول فى رأس البر. يستيقظ فى اليوم الموعود مكتئبا. يقضى نهـــاره مـــع أصدقائه كيفما اتفق يسكنه حزن موحش ثقيل. بحلول المساء يتنصل من مواعيده معهم ليركب "الطفطف" من شـــارع ٨٩ وحتى شارع النيل. ويسير من هناك وحتى شارع

١٢ وقلـــبه يـــتقافز بين ضلوعه ويعرف أن فتاته لا تستطيع مغادرة العشة فى يومها الأخير. يحوم فى دوائر قريبة وبعيدة محاولاً التقاط صورة المعشوقة التى ما إن يلمحها حتى يرف قلـــبه. وقـــبل انتصاف الليل بقليل يجلس خائر القوى بجوار إحـــدى العشـــش المظلمة القريبة من مأوى الحبيبة المقدس ويغـــرق قلـــبه عندما تبدأ الأنوار فى الانطفاء تدريجياً فيعود وحـــده حزيـــنا سيرا على قدميه وهو يقبض بقلبه على طيف المحبوبة التى لن يراها لعام كامل قادم..".

-١٣-

مـــع اختفاء فتاة البحيرة أدركت أنه لم يعد لى أمل فى شـــىء وأن هذه الرحلة الطويلة لن تسفر عن أى شىء. وبدأت أســير فـــى هـــدوء باتجـــاه يخالف البحيرة وأنا أرقب أزواج الفراشـــات الـــتى تحلق حولى متحسرا. لاحظت ضوءا ساطعا ياتى من نهاية الطريق فعجلت من خطواتى قليلا، تبينت فجوة كبـــيرة فى مواجهتى تفضى إلى خارج الكهف، نظرت عبرها اكتشـــفت أنهـــا تطل على هاوية ضبابية سحيقة. هل هذه هى الـــنهاية؟ أهذا هو مصيرى ؟ تأملت حافة الكوة أمامى والأفكار تعصـــف بعقلى وبسرعة كبيرة، وراحت مخيلتى بدورها تدور بصور ومشاهد من اماكن متعددة وزمن مختلف. وتوقفت هذه العاصـــفة أخيرا عند تفضيلى للمكوث هنا على وجه التحديد.. تمامـــا علـــى الحافـــة مـــا بيـــن الكهف بكل ما فيه من عوالم وأشـــخاص وأحلام وهواجس، وبين الهاوية فى الخارج. فهكذا كانت حياتى كلها.. على الحافة.. بلا يقين حقيقى.. حافة الحب وحافة النجاح وحافة الأماكن التى كنت أعبر خلالها من غربة إلـــى أخـــرى كأنه لا مفر منها إلا إليها. جلست بجوار الحافة وأسندت رأسى للجدار واستسلمت مرة أخرى لأفكارى ولعصف

الذاكـــرة الـــتى كانت تعبر بى خلال الزمن والمكان فلا تعكس صورتى فيها عبر ما تعلق بها من أشخاص وأماكن وأزمنة إلا صـــورة الغريـــب. وهكذا استسلمت لأفكارى حتى غابت عن وعيى كل الأشياء. بعد فترة سمعت جلبة اختلطت بها أصوات مـــيزت مـــنها تـــباعا غناء "هند" الرقيق وبحة صوت "تورا" وضـــحكة "بتول" وهمس "سيدة الكهف" ونداء "الصلت" ومناجاة فـــتاة البحـــيرة. ومن بعيد سمعت صوتاً له إيقاع رقيق وأليف ارتفع تدريجيا معلنا عن اقتراب صاحبته بينما كانت الأصوات الأخرى تتلاشى تباعا.. وكنت أهذى كمحموم:

نداءاتـــك يزركشها رنين الخلخال / قلبى يرقص على إيقاع خلخالك / عيناك يا مليكتى تضيئان / ارفقى بقلبى الطفل فأنا لا احتمل آهاتك / خمرية أنت لا سمراء إذن/ قلبى يرقص على إيقاع خلخالك / اغرقتنى بخمر عينيك فلا تبالى بهذيانى / نداءاتك يزركشها رنين الخلخال / عيناك تتسعان فى مرآة عينى فتحتويانى / لا تبعدى ساقيك لأتحسس الخلخال / دثرينى بعريك لنطير / دثرينى بعريك ل ن ط ى ى ر!

تمت

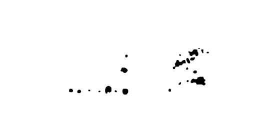
القاهرة ١٩٩٨

شكر

انقـــدم بالشـــكر لكل من ساهم فى ظهور هذا الكتاب.. وعلـــى رأســـهم أســـتاذنا الجميل صنع الله إبراهيم الذى كان لقـــراءته وملاحظاتـــه تحقـــيق الدافع لنشر الكتاب. كما أشكر الأصـــدقاء ياســـر عبد اللطيف ويحيى المنذرى وأحمد الرحبى ومحمـــد البلوشـــى وخالد العزرى على ملاحظاتهم القيمة على الفصول الأولى.

هناك بعض الاقتباسات من كتاب "المهابهاراتا" كما تم الاستفادة فى فصل "سيدة الكهف" من كتاب "الأناشيد الأشورية" الصادر عن دار الساقى.

* صــدرت مــن هــذا الكتاب طبعة خاصة محدودة امتلأت بالأخطاء الطباعــية وهــو ما أتاح لى تعديلها وإجراء نظرة مدققة على النص تجعل من هذه الطبعة الجديدة الكتاب الذى أتحمل مسئوليته.



تجليات أدبية

بين يوميات الراوى فى رحلة استجمام بمدينة « شرم الشيخ » هرباً من ذكرى علاقة عاطفية فاشلة، ورحلته فى أعماق كهف الفراشات، بكل ما يحتويه من عوالم عجائبية، تدور أحداث هذه الرواية.

تتتابع فصول الرواية بالتوازى بين مذكرات الراوى التى ألقى بها بين يدى « الرجل الفراشة » ممثله لماضيه وبين حاضره الذى يبدأ بدخول الكهف، مكتشفاً لعالم عجائبى مدهش عبر نماذج السحرة والمردة، الشخصيات التى شوهتها قسوة الأيام، والنساء والفتيات اللاتى يجسدن نماذج الإلهام والعشق والفتنة والشبق.

ابراهيم فرغلى فى الرواية يقدم تجربة جديدة يجمع فيها بين رواية التفاصيل اليومية بعين راو محايد، والرواية العجائبية، مستلهماً تراث الحكى العربى القديم.